

T  
118 A

عماد الدين زكي

٤٧٧ - ٥٤١ هـ

١٠٨٣ - ١١٤٧ م

عبد الحميد العاني

الدائرة العربية 1968

رؤية فاعلة غير كاملة

هيكل البحث

- (١) المقدمة
- (٢) المصادر
- (٣) عصره
- (٤) نسبه
- (٥) ولادته
- (٦) ولايته واسط وشحنكية البصرة . الحرب بين الخليفة ودييس ٥١٦ هـ = ١١٢٢ م
- (٧) اقتطاعه البصرة ٥١٨ هـ = ١١٢٤ م
- (٨) ولايته شحنكية بغداد ٥١٩ هـ = ١١٢٥ م
- (٩) ولايته الموصل وسائر بلاد الجزيرة ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م
- (١٠) ملكه حلب ٥٢٢ هـ = ١١٢٦ م
- (١١) فتحه لمدينتي حماة وحمص ٥٢٣ هـ = ١١٢٩ م
- (١٢) الحرب بين زنكي والارتقية . فتحه حصن الأثارب، ودارا، واخذ عماد الدين جانب السلطان مسعود في حربه مع اخيه سلجوق شاه، ٥٢٤ هـ = ١١٣٠ م
- (١٣) الحرب بين المسترشد بالله وزنكي
- (١٤) ملكه لقلاع الاكراد الحميدية ٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م
- (١٥) زنكي يحاصر آمد، ويملك قلعة الصور . ٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م
- (١٦) زنكي والخلاف بين المسترشد ومسعود ٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م
- (١٧) زنكي يحاصر دمشق لأول مرة . ٥٢٩ هـ = ١١٣٥ م
- (١٨) الحرب بين الخليفة والسلطان، والتجاء الخليفة الى الموصل ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م
- (١٩) العسكر الأتايكي وبلاد الفرنج ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م
- (٢٠) حصار زنكي مدينة حمص ٥٣١ هـ = ١١٣٦ م
- (٢١) ملك زنكي حمص ٥٣٢ هـ = ١١٣٨ م
- (٢٢) ملك زنكي قلعة بعرين ٥٣١ هـ = ١١٣٧ م
- (٢٣) زنكي وملك الروم ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ - ١١٣٨ م
- (٢٤) ملك زنكي بعلبك ٥٣٣ هـ = ١١٣٩ م

- (٢٥) زنكي يحاصر دمشق ، للمرة الثانية ، ٥٣٤ هـ = ١١٤٠ م  
(٢٦) زنكي يملك قلعة شهرزور ٥٣٤ هـ = ١١٤٠ م  
(٢٧) زنكي وسقمان سنة ٥٣٥ هـ = ١١٤١ م  
(٢٨) زنكي والاكراة الحكارية ٥٣٧ هـ = ١١٤٢ - ١١٤٣ م  
(٢٩) زنكي يملك عانة ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م  
(٣٠) توتر العلاقات بين زنكي وسعود ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م  
(٣١) زنكي في ديار بكر وماردين ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م  
(٣٢) زنكي والرها ٥٣٩ هـ = ١١٤٤ - ١١٤٥ م  
(٣٣) زنكي يحاصر قلعة ابيرة ٥٣٩ هـ = ١١٤٥ م  
(٣٤) مقتل نصير الدين حقر ، نائب زنكي في الموصل ، ٥٣٩ هـ = ١١٤٥ م  
(٣٥) زنكي وقلعة فنك ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م  
(٣٦) زنكي يحاصر قلعة جعبر ٥٤١ هـ = ١١٤٦ - ١١٤٧ م  
(٣٧) مقتل عماد الدين زنكي ٥٤١ هـ = ١١٤٧ م  
(٣٨) سيرة البطل عماد الدين زنكي :

(١) خلقه (اوصافه الجسدية)

(ب) اولاده

(ج) سياسته

(د) زنكي والدين

(هـ) زنكي وعمارة البلاد

(و) زنكي والادارة

لعل من اصعب ما يحابه طالب ان يتصدى لبحث لم يوفه المؤرخون حقه من الدرس والتنقيب ، او لدرس شخصية من الشخصيات التي طغى عليها التاريخ ، ومحا آثارها الزمان ، فيحاول هو بما لديه من المصادر ان يلم بها ويبرزها الى الوجود واضحة .

لا اريد ان اقول ان بحثي في عماد الدين كان مثل هذا العمل ، او ان شخصية عماد الدين نفسها هي في هذه الدرجة من الظلمة كلا . فان عماد الدين من اولئك الابطال القلائل الذين استدعوا انتباه المؤرخين ، واحيطوا بشيء من العناية والعطف . ولكن جميع ما كتب حوله لا يوفيه حقه ، وليس هو من التقصي العلمي بكان ، ان هو الا نتف جمعها الباحثون المحدثون من هنا وهناك وجعلوها في قالب موحد ، الا انه درس بعيد عن ان يكون في مصاف الدراسات العلمية النقدية ، ولا يزال عماد الدين يحتاج الى من يكرس له شظرا من اهتمامه ، فيقبل على الروايات التاريخية بالدرس والنقد العلمي ، ويمتص اخباره ، ويحاول استخراج ما ضاع منها في بطون التاريخ حتى يخرج لنا صورة واضحة وصحيحة عن هذا البطل المخوار .

وكنت وددت لو اتيتحت لي الظروف فأقيم بهذا الدرس الذي اتطلبه من غيري ، الا ان ضيق الوقت حال دون ذلك ، ومنعني من ان اذهب بالدرس والبحث الى آخر حدودها . على انني وان لم تقدر لي الظروف مثل هذا البحث المستقصى ، فأنني فخور في انني قد اوضحت في هذا الصحائف المعدودة معالم تاريخ عماد الدين ، والى احاطته بشيء من الاهتمام والعطف الخاصين ، حتى توفقت بما اتيتح لي من الوقت القصير ، ومن المصادر القليلة ، الى اخراج صورة عن زكي ان لم تكن كاملة ، فهي محاولة ارجو ان تكون موفقة .

ولا يغوتني في هذه المناسبة ان اذكر بكل اعجاب وتقدير ان ساعدى اليمين في هذا البحث المتواضع كان استاذى الدكتور قسطنطين زريق الذى كان يرشدني بين الفينة والفينة ، ويعين لي المآخذ والمراجع ، وينير لي

الطريق . فأنا مدين في بحثي الى جهود الاستاذ زريق ، ومدين ايضا الى عطفه الذي احاطني به ، والى نوره الذي نورني به ، لذا فأني اضع اسمه في مقدمة البحث ، محاطا بهالة من التقدير .

ولا اكتم القارئ أن معظم ما استندت اليه من المصادر ، المصادر الاولية ، وذلك حسب ما يتطلبه العلم الحديث ، والفن التاريخي ، اللذين يتطلبان من طلابهما الرجوع الى الاصل دون الفرع ، لان الاصل اصفى واصح ، كالما في نبعه اصفى منه في مجراه .

ولقد اعتمدت كثيرا في اخبار زنكي الخاصة على روايات ابن الاثير في كتابيه : الكامل ، وملوك الموصل ، لسبب واحد رئيسي هو ان والد ابن الاثير كان معاصر الزنكي وكان من اعوانه ورجاله ، ويظهر انه كان يقتر قصصه لابنه (ابن الاثير المؤرخ ) فيأخذها هذا بأمانة ، ويدونها في تاريخه ، مخبرا عنها انها عن لسان والده . فأخبره اذن هي اهم من غيرها لأنها مروية عن شاهد عيان عاصر عماد الدين وماشاه وحادثه وحضر بعمر حرويه وجالسه .

نذكر الى جانب مؤلفات ابن الاثير ، كتاب الاعتبار لأسامة ابن منقذ وهو من المؤرخين المعاصرين القلائل الذين كتبوا عن زنكي ودولة الاتابكة في الموصل ، واذا ذكرنا ان ابن منقذ توفي سنة ٥٨٤ هـ ، وانه من المعريين الى زنكي وابنه نور الدين من بعده ، وانه لازم الاثنين ردحا من الزمن ، اذا ذكرنا كل ذلك ، تبين لنا قيمة ابن منقذ التاريخية بالنسبة الى بحثنا .

واخيرا اعتمدنا في اخبار حوادث الشام على ابن القلانسي المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، وهو اقرب المصادر الاولية طرا الى زمن عماد الدين زنكي .

اما فيما يتعلق بالمصادر الثانوية ، فقد كان حل اعمادنا على كتاب

(Stevenson) ، وعلى مقالة Zangi في الموسوعة الاسلامية للكاتب Zettersteen اذ انهما من انتاج مؤرخين غربيين ، هما من المؤرخين القلائل الذين اهتموا بتاريخ عماد الدين ، وهذان البحثان يصلحان ان يتخذا مثلا لوجهة نظر كتاب الغرب في هذه الشخصية العظيمة .

وفي الختام لا يسعني الا ان اعترف بحفاف الموضوع ، وخالوه  
من لذة ممتعة يشعر بها الدارس ، ان ان الموضوع لم يكن سوى بحث في  
الفتح والحروب ، والقتل والاسر ، وما الى ذلك من الاعمال الحربية .

## ٠٢ لائحة المصادر

### ١- المصادر الاولى

- (١) ابن القلانسي (+ ٥٥٥ هـ) ذيل تاريخ دمشق نشر ببيروت ١٩٠٨ م
- (٢) اسامة بن منقذ (+ ٥٨٤ هـ) كتاب الاعتبار الولايات المتحدة ١٩٣٠ م  
مصلحة جامعة برنستون
- (٣) ابن الاثير (+ ٦٣٠ هـ) كتاب الكامل ج ١١١٠  
مصر - مطبعة احمد الحلبي ومصطفى محمد ١٣٠٣ هـ
- (٤) ابن الاثير (+ ٦٣٠ هـ) ملوك الموصل

### ب- المصادر الثانوية

#### (١) العربية

- (أ) ابو شامة المقدسي كتاب الروضتين في اخبار الدولتين القاهرة ١٢٨٨ هـ  
النورية والصلاحية وادي النيل (+ ٦٦٥ هـ)
- (ب) ابو الفداء المختصر في اخبار البشر الاستانة ١٢٨٦ هـ  
دار الطباعة (+ ٦٧٢ هـ)
- (ج) ابن خلكان وفيات الاعيان مصر - بولاق ١٢٧٥ هـ  
(+ ٦٨١ هـ)
- (د) ابن الوردي تنمة المختصر في اخبار البشر مصر ١٢٨٥ هـ  
(+ ٧٤٩ هـ)
- (هـ) المقرئ السلوك لمعرفة دول الملوك مصر - القاهرة ١٣٤٧ هـ  
(+ ٨٤٥ هـ)
- (و) القرماني اخبار الدول وآثار الاول بغداد ١٢٨٢ هـ  
(+ ١٠١٩ هـ)
- (ز) الحنبلي شذرات الذهب في اخبار من ذهب عنيت بنشره كلية القدس ١٣٥٠ هـ  
(+ ١٠٨٦ هـ)
- (ح) علي الحريري الاخبار السنية والحروب الصليبية مصر - المطبعة العمومية الطبعة الاولى ١٣١٧ هـ
- (ط) الغزوي نهر الذهب في تاريخ حلب حلب - المطبعة ١٣٤٢ هـ  
الماورنية

- ي) الخضرى محاضرات تاريخ الامم الاسلامية مصر - المكتبة التجارية الكبرى ١١٢٦ هـ ج ٣
- ك) محمد كرد علي خطط الشام دمشق - المطبعة ١٢٤٣ هـ ج ٢ الحديثة
- ل) جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية القاهرة - مطبعة ١٩٣١ م ج ٣ الملل

(٢) الفرنجية

a) Douglas, Amanda N.

The Heroes of the Crusades.

Boston, Lee and Shepard, 1892.

b) Stevenson, W.B.

The Crusaders in the East.

Cambridge University Press, 1907.

c) Barker,

The Crusades

London, Oxford University Press, 1936.

d) K.V. Zettersteen,

Encyclopaedia of Islam,

"Zengi"

Vol. IV.

e) M. J. de Goeji

Encyclopaedia Britanica,

"Caliphate"

Vol. V, Edition 11th.



### ٠٣ عصر عماد الدين زنكي

لا بد لنا ونحن ندرس شخصية عماد الدين من ان نلقي نظرة على العصر الذي عاش فيه ، وما كان يتمخض فيه من الاحداث العامة ، لكي نضع صورتنا ضمن اطار محدود لا يتعداه . ومن الطبيعي اننا سوف لا ندرس العصر درسا مستقضى بحيث نستوعب جميع تفاصيله وحذافيره ، اذ ان ذلك يخرج بنا عن الموضوع الرئيسي الذي اختطناه لانفسنا ، ولكننا نلقي عليه بعض الضوء ، ونرسم له الخطوط الكبرى ، والحدود الرئيسية التي تجعله واضحا بعضر الوضوح في نظر القراء . وأني اعترف من الآن ان عملي في هذا الدرس المقتضب لا يتعدى بضغ ملاحظات حول هذا العصر الذي عاش فيه عماد الدين زنكي .

ان العصر الشامل الذي عاش فيه عماد الدين هو العصر العباسي الذي يمتد على ما يقارب الخمسة قرون ، منذ ١٣٢ هـ - ٦٥٦ هـ . اين يقع عماد الدين من هذا العصر ؟

لقد اصطلح المؤرخون على تقسيم العدر العباسي الى اربعة ادوار كل دور يتفق ونفوذ من نفوذ الاعاجم . اما الدور الاول فهو ما يدعوه المؤرخون بدور الصراع بين العرب والموالي ، او دور نفوذ الفرس ، ويمتد من ١٣٢ - ٢٣٢ هـ . يتلوه دور النفوذ التركي ويمتد ايضا على نحو قرن من الزمن ، من سنة ٢٣٢ - ٣٣٤ هـ ثم ظهر على مسرح الدولة العربية عنصر جديد يدعى بالعنصر البويهي ، استلم مقدرات الدولة مدة تقارب القرن ، من ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ . واخيرا ظهر السلاجقة والمغول ، مدوا ايديهم الى السلطة العليا ، وتمكنوا بما اوتوه من قوة وجبروت من التغلب على العرب وعلى البويهيين على السواء ، فقبضوا على زمام الحكم ، وسيروا دفة الحكومة على حسب آرائهم ورغباتهم . ولقد دام السلاجقة في الحكم اكثر من غيرهم ، وذلك انهم دخلوا بغداد واستلموا السلطان فيها سنة ٤٤٧ هـ<sup>١</sup> ولم ينزعوا الملك من ايديهم وتذهب ريحهم الا بعد قرنين او اكثر حين سقطت بغداد سنة ٦٥٦ هـ على يد هولاكو ملك التتر وطاقيتهم<sup>٢</sup>.

٠١ زيدان ٣ : ١

٠٢ زيدان ٣ : ١

من هذا العصر العباسي الصويل يقع عماد الدين زنكي في دور النفوذ السلجوقي وهو على ما رأينا رابع وآخر الادوار العباسية .

والدولة السلجوقية تختلف عما تقدمها من الدول التركية بانها لم تنشأ فرعاً للدولة العباسية<sup>١</sup>، وانما قامت بها امة ذات بطش وسلطان حملت على المملكة الاسلامية وفتحتها بالسيف . والسلاحقة يقسمهم المؤرخون الى خمسة اقسام بالنسبة الى السلالات المختلفة التي تفرعوا اليها . فهناك<sup>٢</sup> :

(١) السلاحقة العظام

(٢) السلاحقة في العراق

(٣) سلاحقة الشام

(٤) سلاحقة كرمان

(٥) سلاحقة آسيا الصغرى

ويهمنا من هذه الفروع بصورة خاصة ، سلاحقة الشام ، وهم يتحدثون من ابن لألب أرسلان يعرف بـ (تتشر)<sup>٣</sup> . وهؤلاء هم الذين كانوا يحكمون البلاد عندما جاء الصليبيون الى بلاد سوريا ، وقد قاموا على حكم البلاد من ١٠٤٨ - ١١١٧ م ، حين تغلب عليهم الملك العادل نور الدين زنكي ابن عماد الدين أتابك الموصل .

ونور الدين هذا هو ابن عماد الدين الذي نحن بصدده ، وكلاهما يمكن اعتبارهما كمؤسسين للدولة الأتابكية في الموصل التي يؤرخ المؤرخون ابتداءها في سنة ٥٢١ هـ<sup>٤</sup>

وكما كانت الموصل تحت حكم هؤلاء الزنكيين ، كذلك كانت دمشق تحت سلطة اسرة اخرى من اسر الأتابكة ترجع الى مؤسسها الملك سيف الاسلام ظهير الدين بن طغتكين ، حكمت البلاد الشامية من سنة ٤١٧ هـ - ٥٤٦ هـ ، حينما انتهى آل زنكي حكمها<sup>٥</sup>.

---

١. زيدان ٣ : ١      ٢. زيدان ٣ : ١ ، الخضرى ٣ : ٤٦٢ - ٤٧٣

٣. ابن الاثير ١١ : ٨١ ، الخضرى ٣ : ٤٧٠

٤. الخضرى ٣ : ٥٠٤

ظهر السلاجقة على مسرح الدولة العربية ، والمملكة العباسية قد تضععت بالانقسامات المتوالية وضعف شأن البويهيين الفرس في العراق وفارس والفاطميين العرب في مصر<sup>١</sup> . وكان لهم من القوة والنفوذ ما ضمن سطوتهم وسلطانهم على الخلافة والخلفاء فلم يعد لهذا المركز الكبير في هذا الدور وفي بعض الادوار التي سبقت من المقام الزمني ما كان له في عهد الراشدين او الامويين او العباسيين الاول . بل اقتصر على التمثيل الروحي فحسب كما كان البابا ولا يزال يمثل السلطة الروحية في بلاد الفرنج .

تسّم عرش الخلافة في هذا الدور تسعة خلفاء هم بالتتابع<sup>٢</sup> : القائم ، المقتدى ، المستظهر ، المسترشد ، الراشد ، المقتفي ، المستنجد ، والمستضى ، والناصر . وكلهم ذوو شخصيات ضعيفة ما خلا البعض منهم كالمسترشد والراشد والمستنجد .

ولقد اتبع السلاجقة بخلاف البويهيين سبيل تقوية الخلافة في بادئ الامر ، ولكن سرعان ما غير السلاجقة خططهم وعاد الضعف الى الخلافة . ولكن بعض شخصيات الخلفاء كانت تحاول أن تبرز نفسها بالرغم من هذا الضعف ، وتحاول الظهور الى الميدان بالرغم من العوامل التي كانت تعمل على اخمادها ، ولعل من اجراءهم على ذلك الخليفتين المسترشد والراشد اللذين استفادا من هذه القوة الوقتية التي عادت للخلافة في بدء هذا العهد ، فحاولا ان يحكما بالفعل لا بالاسم ، وان يكون لهما السلطان على السلاجقة . فنازعا السلاجقة في بغداد وغيرها<sup>٣</sup> ، وتصارع الفريقان ردحا من الزمن ، ولكن كانت الغلبة في النهاية للسلاجقة . وهذه الطفرة التي ظهرت بها الخلافة في هذا الدور لم تكن طويلة المدى ، وهي وان كانت تدلنا على شيء فانما تدلنا على ان قوة الخلافة لم تكن في يد الخلفاء انفسهم ، وانما كانت مستمدة من القوى الخارجة عن الخلافة .

---

١ . زيدان ٣ : ٩

٢ . الموسوعة البريطانية ٥ : ٥٢ - ٥٣ ، الخضرى ٣ : ٤٧١

٣ . الخضرى ٣ : ٤٦٢ - ٤٧٣

كذلك حاول المقتفي بعد المسترشد والراشد ان يكون له سلطة فعلية ، فحارب دولة بني مزيد القائمة في الحلة ، في قلب العراق ، وتبعه في ذلك المستنجد ، ولكن قوة هذين الخليفين وبروزهما بعصر البروز لم يكن راجعا لمحاربتيهما لدولة بني مزيد ، وانما يرجع الى ان قوة جديدة بدأت تظهر في غربي البلاد ، وحاولت دعم الخلافة العباسية ، هذه القوة هي قوة الايوبيين التي اسسها البطل صلاح الدين الايوبي ، والتي كان لها القدح المعلى ، واليد البيضاء في القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر والشام ، واعادتها الى حظيرة العباسيين .

ولقد حاول الناصر كذلك أن يبرز شخصيته وأن يتخلص من نفوذ السلاجقة المحيطين به ، ولكن محاولته هذه باءت بالفشل ، وانتهت باضطرابه الى الاستنجد بقوة خارجية اخرى للتخلص من السلاجقة . هذه القوة هي قوة المغول الذين لم يهدموا سلطة السلاجقة فحسب ، بل قضا على سلطة الخلفاء العباسيين ايضا ، وطروا صفحة التاريخ العباسي نهائيا .

ومما زاد الدولة اضطرابا في هذا الدور ظهور الصليبيين الفرنج الذين هاجموا هذه البلاد ، وحملوا خاصة على سوريا وفلسطين ، حملات عنيفة هزت الشرق والغرب ، ولم يبذل الخلفاء جهدا فعالا في سبيل قمع حركة هؤلاء الصليبيين ، والوقوف في وجههم ، بل تركوا الحبل على غاريه ، فاحدث الفرنج في البلاد ما احدثوه من نهب وسلب ، وما زالوا يخبرون من سنة ٤١٢ - ٥٨٢ هـ حتى اضطروا الى الحلاء بعد ان تركوا في اهل هذه البلاد آثارا اجتماعية ، عقلية ، روحية ، لا تقدر او تحصى !

من يذكر هذا العصر ، يذكر الاندلس وقد انحلت وذهبت وحدتها ، وانقسمت الى امارات ودويلات ، كما انقسمت الدولة العباسية قبلها ، وكما تولى امراء الفرس والأتراك والاكراذ والعرب على فروع المملكة العباسية ، ففروع مملكة الامويين في الاندلس آلت السيادة فيها بعد بني مروان الى امراء اكثرهم من البربر

تغلب كل منهم على ما في يده منذ اوائل القرن الخامس للهجرة ،حتى جاءت دولة المرابطين ، ثم اعقبتها دولة الموحدين . وتوالى الانقسام بين تلك الدول حتى اخرج المسلمون من اسبانيا . هذا في بلاد الاندلس .

اما في مصر ، فكانت دولة الفاطميين<sup>١</sup> تناوئ دولة السلاجقة في بلاد الشام وتناهضا .

وهكذا نرى ان العصر الذي عاشر فيه عماد الدين عصر انقسام الدولة العربية وانحطاطها ، وعهد تفكك الحكم العربي وانحلاله . هو عصر انقسم فيه الملك العربي على نفسه بحيث لم يعد تاريخ البلاد العربية تاريخا موحدا بل تاريخ دول مختلفة . دولة السلاجقة في آسيا الصغرى ، وكرمان ، والعراق ، الشام . دولة الفاطميين في بلاد النيل . ودويلات مختلفة في افريقية ، والدويلات المستقلة في الاندلس .

هذا التفكك ، وهذا الانقسام ، فتح المجال امام بعض الشخصيات الفعالة للتدخل في شؤون الحكم ، والتأمر على الحكام واصحاب السلطان ، ومحاولة بسط النفوذ على ما يليها من البلاد . ولعل من اكبر هذه الشخصيات الفعالة الأتابك عماد الدين زنكي ، ذلك البطل المغوار ، والشهم الشجاع ، الذي دوخ الاعداء ، وفتح الامصار ، وبسط فيها السلطان .

ملك عماد الدين حلب سنة ٥٢٢ هـ ، وحماة وحمص ٥٢٣ هـ ، وبعليبك ٥٢٣ هـ ، وعانة ٥٢٨ هـ ، والرها ٥٣٩ هـ ، وحاصر مدينة دمشق العظيمة مرتين ، سنة ٥٢٩ هـ و ٥٣٤ هـ . وفتح عدة حصون وقلاع ، نذكر منها هنا على سبيل التمثيل قلعة صور ، وقلعة بعيرين التي ملكها ٥٣١ هـ ، وقلعة شهرزور وقد اخضعها سنة ٥٣٤ هـ . وحاصر عدة قلاع منها قلعة فنك ، وقلعة جعبر سنة ٥٤١ هـ . وكانت له مع الروم وقائع وحروب شهيرة ، لعل اهمها تلك الاحداث التي حدثت بين زنكي وملك الروم سنة ٥٣٢ هـ .

كذلك كانت له مقائع مع الاكراد، وهم قوم أشداء، فما زال يحاربهم ويناضلهم حتى تغلب عليهم وكسر شوكتهم، فملك من الاكراد الحميدية قلاعها سنة ٥٢٨ هـ، وملك من الاكراد العكارية قلعتهم الشهيرة (أشب) سنة ٥٣٧ هـ، كما انه أغار على عدة حصون في ديار بكر وماردين وفتحها عنوة وقهرا، كحصون الدوق، وفطليس، وذى القرنين، واغضع عدة بلاد وملكها ككنزة واسعد وغيرهما.

كل ذلك خلا ما اتصف به هذا البطل الشهم من حميد الخلال، وجليل الفعال، وحسن السياسة وجودة الادارة، والصلاح في الدين والدنيا.

ومن يذكر عماد الدين، يذكر كلمة (أتايك) وهي تركية الاصل، معناها مربي الملك<sup>١</sup>، فكان السلاجقة اذا امتاز احد قوادهم بهذه الميزة، يخلقون عليه لقب أتايك. وقد وصل بعض هؤلاء الأتابكة الى درجة الملك في بعض الاقاليم الاسلامية، واورثوا ابناؤهم ملكهم. من اشهر هؤلاء عماد الدين زنكي الذي استقل في الموصل، واورث ابنه نور الدين الملك من بعده. وسبب بروزه وظهوره انه ينتهي الى اسرة عريقه في البصولة والقيادة. فقد كان والد عماد الدين يدعى (اق سنقر)<sup>٢</sup>، كان مملوكا للسلطان ملكشاه بن الب أرسلان السلجوقي، وكان معدودا من كبار القواد، جعله ملكشاه من قواد اخيه تنش، ولما ملك حلب استنابه فيها، ثم التحق بالسلطان (بركيارق) بعد وفاة ملكشاه.

وكان تنش يعني نفسه بملك العراق، فجهز الجيوش لیسطو عليها، وارسل (بركيارق)<sup>٣</sup> اليه الجنود وعلى رأسهم (أق سنقر) فالتقى الفريقان، واقتتلوا، فانهزم من مع اق سنقر، وثبت هو، فأسر ثم قتل<sup>٤</sup>.

وقد نشأ ابنه (عماد الدين زنكي) في كنف الدولة السلجوقية واهتم به ملوكها، واحاطوه برعايتهم، لما كان لايه من الايادى البيضاء في

١. كرد علي ٢ : ١٦، الموسوعة ٤ : ١٢٢٤، الخضرى ٣ : ٥٠٤

٢. ابن خلكان ١ : ١١٠، ستيفنسن ١٢١، الحنبلي ٤ : ١٢٨

٣. ابن الاثير ١١ : ٨٦

٤. ابن الاثير ١١ : ٨٦، ابو الفداء ٢ : ٢٠٤

حفظ بيتهم وخدمته ، فنشأ نشأة عالية ، ورعاية السلاطين تحيط به ، وحمايتهم  
ترعاه ، حتى ولاء السلطان (محمود) مدينة الموصل سنة ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م ،  
ليقوم بحفظها ، وإصلاح شأنها ، وجعله أتابك ولده (فروخ شاه) المعروف  
(بالخفاجي) <sup>١</sup> ومنذ ذلك الحين ، ذاع صيت عماد الدين ، ومنذ ذلك الوقت  
اشتدت شوكته ، ووطأته على من حوله . فأخذ يناوىء الروم والترك والسلاجقة  
والعرب . وكان يعاصره في العراق من الخلفاء العباسيين ، المسترشد والواشد  
وهما كما مر معنا من أولئك الخلفاء الأقوياء الذين كانت فيهم حماسة الشباب  
وحكمة الشيخ ، فكانا يتوقان إلى الحكم الفردي ، أو أن شئت فقل إلى بسط  
النفوذ والسلطان والحكم دون سلاطين السلاجقة ، ولكن الظروف قد ضاقت بهما  
زرعا ، وخانتهم قواهم ، وكثيرا ما تخبب الأقدار آمال والأمنيات ، فلم يمكنا من  
تحقيق ما كانا يصبوان إليه من سلطان .

ولقد تداخل أتابك في امر هذين الخليفتين ، واشترك في الخلاف  
الشهير الذي نشب بين الخليفة المسترشد والسلطان مسعود . كذلك مضى عليه  
زمن توترت خلاله العلاقات بينه وبين السلطان مسعود ، حتى تم الأمر بينهما  
إلى عقد صلح سنة ٥٣٨ هـ .<sup>٢</sup>

وسوف نرى فيما يأتي من بحثنا الشاهد الذي بلغه عماد الدين ،  
والشأن الذي حدث له ، حتى ليحسّ لباحث أطلع عليه اطلاعا دقيقا أن ينعتة  
ببطل الاسلام ، في القرن السادس للهجرة . وما ذلك الا لانه قد تمكن في عصر  
الانحطاط والتفكك ، وبعهد التفسخ والانقسام ، من أن يجمع قوى المسلمين ، أو على  
الأقل ، أن يجمع شطرا من قواهم ، ويضرب بهم الأفاق ، ويجوب بهم البلدان ، ويفتح  
بواسطتهم الأمصار ، ويزعزع بشدة شوكتهم ، ورباطة جأشهم ، عروش الروم ودحا من  
الزمن ، حتى طاد في زمنه شيء من العز العربي إلى الوجود ، وأخذ الفرنج  
يحسبون لهم حسابا .

ولعل الأستاذ (Barker) محق عندما قال في زنكي ما ترجمته : -  
"وعند ما استلم عماد الدين زنكي الحكم في الموصل سنة ١١٢٧ م = ٥٢١ هـ ، بدأت كفة  
المسلمين ترجح على الفرنج ، ولقد أوجد عماد الدين زنكي لنفسه دولة موحدة تجمع الموصل ،  
وحلب التي كانت لآبيه منذ ١١٢٥ م ، وحران ، ونصيبين ، وديار بكر ، ومقاطعات أخرى  
عديدة !"

#### ٠٤ . نسبه

هو ابو الجود ، عماد الدين زنكي بن اق سنقر الملقب بالملك المنصور<sup>١</sup> . وتتفق جميع المصادر من اولية وثانوية على ان اياه كان يحرف بابي سعيد اق سنقر بن عبد الله الملقب بتسيم الدولة والمعروف بالحاجب ، جد البيت الاتابكي اصحاب الموصل<sup>٢</sup> .

كان اق سنقر ، والد عماد الدين ، مملوكا للسلطان ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقي<sup>٣</sup> . ولما ملك تاج الدولة تتش بن الب ارسلان السلجوقي مدينة حلب سنة ٤٧٨ هـ استنابه فيها واعتمد عليه لانه مملوك اخيه<sup>٤</sup> وما تذكره المصادر عن اق سنقر المذكور امر عصيانه على تتش وخروجه عليه ، مما اضطر تتش صاحب دمشق يومئذ الى محاربته وجرت بينهما منازعات شديدة انتهت باسراق سنقر واعدامه في جمادى الاولى سنة ٤٨٢ هـ<sup>٥</sup> . وان جميع المصادر التي بين ايدينا تتفق على تاريخ وفاة اق سنقر في سنة ٤٨٢ هـ<sup>٦</sup> .

ويظهر ان اق سنقر دفن اولا في "قرنيا" في حلب ، ولما ملك عماد الدين زنكي مدينة حلب عام ٥٢٢ هـ نقل جثمان والده الى المدرسة الزجاجية التي انشاها بدر الدولة ابو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن ارتق صاحب حلب<sup>٧</sup> .

#### ٠٥ . ولادته

ولد عماد الدين عام ٤٧٢ هـ ، على ما يذكر ذلك ابن خلكان ( ١ : ٢٧٢ ) ، ومن يلق نظرة على الاصول العربية يجدها قليلة العناية بتاريخ مولده ، ولعل السبب في ذلك ان عماد الدين لم يكن في حياته الاولى من الشهرة

٠١ ابن خلكان ١ : ٢٧١

٠٢ ابن خلكان ١ : ١١٠ ، القرمانى ٢٧٩ ، الحنبلى ٤ : ١٢٨ ، منقريوس ١٨٠ الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٤ ، باركر ٣ ، ستيفنسن ١٢١ .

٠٣ ابن خلكان ١ : ١١٠ ، الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٤ ، ستيفنسن ١٢١

٠٤ ابن خلكان ١ : ١١٠ ٠٥ ابن خلكان ١ : ١١١ ، القرمانى ٢٧٩ ، ابن الاثير

١٠ : ٨٦ ، الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٤ ، ستيفنسن ١٢١

٠٦ ابن الشحنة ١٠٩ - ١١٠



يمكن بحيث يهتم بتدوين تاريخ ولادته كما يحدث لأكثر العظماء الذين تبدأ حياتهم الأولى بالخمول ثم لا يلبثون أن تقوى شخصيتهم ويتسع نفوذهم حتى يصبحوا أبطالا ورجالا تاريخ . على أن من لم يتقصر تاريخ ولادة عماد الدين ، كما هو الواقع ، يذكر أن والده أق سنقر قتل عام ٤٨٢ هـ ، وأن ابنه عماد الدين كان حين قتل أبوه له من العمر عشر سنوات فحسب<sup>١</sup> ، مما يدل على أن مولده كان قبل وفاة أبيه بعشر سنوات ، أي في سنة ٤٧٢ هـ .

### ولايته واسط وشحنكية البصرة . الحرب بين الخليفة ودييسر

٥١٦ هـ = ١١٢٢ م

ومن المؤسف أن أخبار عماد الدين في حياته الأولى تنقطع إلى أن تصل إلى سنة ٥١٦ هـ = ١١٢٢ م ، حيث تذكر المصادر وعلى رأسها تاريخ الدولة الاتابكية (ملوك الموصل) لابن الأثير أقصاعه مدينة واسط وولايته طليها وعلى شحنكية البصرة فيقول " في سنة ٥١٦ هـ أقطع أتابك عماد الدين زنكي مدينة واسط وولى شحنكية البصرة وكان سبب ذلك الأمير ديبس بن صدقة الأسد ، صاحب الحلة كان قد تقدم منها مع الملك مسعود والأمير جيوشرك بك ، فبلغ السلطان ، وانضاف إلى ذلك شكوى أمير المؤمنين المسترشد بالله منه إلى السلطان ، فأرسل إلى البرسقي يأمره بالانحدار إلى بغداد بعساكر الموصل ومحاربة ديبس فأنحدر إليها في عساكره ومعه عماد الدين زنكي ، وسار عن بغداد نحو الحلة ، فلقبه ديبس عند نهر بشير فانهزم عسكر البرسقي من غير قتال ، و . . . . . وعاد إلى بغداد من غير قتال . فلما انهزم البرسقي لم يتعرض ديبس إلى أحد وأرسل إلى الخليفة أنه على الطاعة . . . . . ثم أن السلطان ولى البرسقي شحنكية العراق جميعه وزوجه (خاتون بهشت جهان) والدته أخيه الملك مسعود ، وأقام البرسقي ببغداد . . . . . وترددت الرسائل بينه وبين ديبس في الصلح فلم يتم ذلك ، فأرسل ديبس عسكرا إلى واسط وكان من بها من العساكر قد كاتبوا البرسقي فصاروا

معه ، فلما سمع من بها بمسير عسكر ديبس اليهم ، ارسلوا يطلبون المدد من البرسقي ، فامدّهم بالامير التونتاش الابرى وعماد الدين زنكي ، واقطعه البلد ، وامرهم بطاعته ، فصاقوا عسكر ديبس فهزمهم واسروا اكثرهم ، وعاد الباقون منهزمين الى ديبس . وأقام عماد الدين بواسط وارسل اليه البرسقي ايضا فولاه شحنية البصرة ، وامره بحمايتها فوليا وحماها ، وانتقل اليها واقام بها لحفظها لكثرة تطرق العرب اليها ، والاغارة عليها مرة بعد مرة . فلما سكنها لم تتعرض اليها احد ، وسكن ما كان بها من الفتن ، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه احد ، فازداد شأنه عظما ، وتجنب ديبس قصد ولايته لعلمه انه لا ينال منها غرض ، وانفذ عسكرا نحو المداين ، فخاف اهل بغداد ، وعبر البرسقي الى الجانب الغربي طازما على قصد ديبس ، وناهيك هذا شرفا لعماد الدين حيث يترك ولايته مع بعدها عن بغداد ، ويقصد المداين وهي الى جانب بغداد البرسقي في العساكر قريب منها ، وبطل الحج هذه السنة من العراق لهذا السبب . ولما ورد ديبس عساكره الى المداين وعبر البرسقي الى الجانب الغربي لمسيره ، ارسل الخليفة المسترشد بالله الى ديبس ينهاه عن الحصان ، ويهدده ان امر على المخالفة بقصد بلده ، فغضب ديبس ، وحلف ليقصد بغداد وليخربنها ويقتل اهلها ، وجمع العرب واطمعهم في نهب بغداد ، فكثرت جمعه ، فلما علم الخليفة بما كان منه سار عن بغداد ومعه العسكر ، وعليه قبا اسود وعمامة سوداء ، وطرحه وعلى كتفه بردة النبي (ص) وبيده القضيبي ، وعبر في الزبزب ومعه وزره نظام الدين احمد بن نظام الملك ، ونقيب النقباء وشيخ الشيوخ صدر الدين اسماعيل وقاضي القضاة الزيني . فلما سمع البرسقي بمسير الخليفة ركب وعاد الى لقاءه فحين رأى الشمسية ترجل هو ومن معه وقبلما الارض ، فلما نزل الخليفة في الخيمة احضر البرسقي والامراء واستحلفهم ، ثم سار نحو الحلة ، وقد تأخر ديبس عن المداين ، ورتب البرسقي عسكره فحعل في الميمنة عماد الدين زنكي في عسكره والامير ابا بكر الياس البكجي ، ووقف الخليفة في مكبه خلف العسكر بحيث يرويه القرآن بين يديه ، والمصاحف منشورة ، متقدم الى اهل بغداد بقراءة القرآن والدعاء له ، فختموا ذلك اليوم الف ختمة ودعوا له بالنصر ، فلما توافقت العساكر حملت ميسرة

ديسر ومقدمها عنتر ابن ابي العساكر على الامير ابي بكر الياسر ومن معه فتراجعوا على اعقابهم ، ثم حمل عليهم عنتر حملة ثانية فكان حالها الاولى واشرفوا على الهزيمة ، فلما رأى عماد الدين زنكي ذلك حمل في عسكر واسط على عنتر واصحابه واطبقه من خلفه وعاد الامير ابو بكر فبقى عنتر ومن معه في المسط فاخذوا في اليد وقتل منهم الكثير ، وكان البرسقي قد جعل له كميناً ، فلما اشتدت الحرب ظهر الكمين من وراء عسكر ديسر ، فالتقوا نفوسهم في النيل فغرق منهم خلق كثير سوى من قتل واسر . ولما رأى المسترشد بالله فعل عنتر بيمينته البرسقي وان من بها قد اشرف على الهزيمة جرد سيفه وتقدم وهو يكبر وقد عزم على ان يباشر الحرب بنفسه فكفاه عماد الدين ، فلما تم الظفر قدمت الاسرى الى المسترشد بالله فامر بقتلهم ، ووقع نساء ديسر وسرايره في الاسر غير زوجته ، ابنة ايلغازي بن ارتق وابنة عميد الدولة بن جهير فانهما كانتا بالحسين . كانت هذه الواقعة في اول المحرم سنة ٥١٧ هـ . وعاد المسترشد الى بغداد<sup>١</sup>

ثم اتفق أن غادر ديسر العراق ملحق بطغرل ، فأمنت البلاد واستقرت الاحوال فيها فارسل السلطان محمود الى البرسقي يأمره بالعودة الى الموصل لمحاربة الفرنج . وولى شحنة بغداد رجلاً يعرف "ببرتنش الزكوى" ، فنزل البرسقي عند ارادة السلطان وعاد الى الموصل عام سبع عشرة وخمسائة للهجرة ، وكان عماد الدين زنكي حينئذ بالبصرة فارسل البرسقي اليه يعلمه الحال ويستدعيه ليسيير معه الى الموصل<sup>٢</sup> . وجاء عماد الدين زنكي الخبر باستدعائه فاضطرب ردحا من الزمن وجميع اصحابه وقال لهم "قد ضجرنا مما نحن فيه كل يوم قد يملك البلاد امير ونؤمر بالتصرف على اختياره وارادته ، ثم تارة بالعراق وتارة بالموصل وتارة ببلاد الجزيرة وتارة بالشام ، فبم تشيرون اصنع؟ فقال له زين الدين علي بن بكتكين وكان اوثق اصحابه عنده واكثرهم صحبة له فقال — يا مولانا — التركمان تقول في امثالهم اذا اراد الانسان ان يضم على رأسه حجراً فليكون

١ . ملوك الموصل ٤٥ — ٥٠

٢ . ابن الاثير ٥٠

من جبل كبير ولكن نحن اذا كنا لا بد وان نخدم الناس فلأن نخدم السلطان  
اولى<sup>١</sup> . فقم ذلك الرأي من عماد الدين موقع القبول وسار من البصرة يريد  
السلطان واقام عنده زمنا ولكنه لم ير منه ما كان يأمله من حسن اللقاء وانفق  
ما كان لديه من مال ، وكان كلما ضاق به الأمر يقول للزين الدين " يا على قد  
وضعنا على رؤوسنا حجرا عظيما كما اردت<sup>٢</sup> . على انه صدف أن خرج السلطان  
يوما ليلعب بالكرة فدخل الميدان واخذ الجوكان بيده واستدعى عماد الدين : نكي  
وناوله اياه قائلا له " اللعب معنا . ثم التفت السلطان الى الامراء وخاطبهم  
قائلا - اما تستحون يجرى اليكم فلان وهو من قد عرفتموه وعرفتم محل والده  
في الدولة فلم يكن فيكم من يحمل له شيئا ولا يحمل له دعوة ، والله لقد تركته  
لم ارسل اليه نفقة ولا اعطيته اقطاعا لانظر فعلكم<sup>٣</sup> . وبالغ السلطان في لومهم  
لتقصيرهم ثم قال لعماد الدين " لقد زوجتك امراة الامير كندغدي " وامر له  
بمال . وكان الامير كندغدي هذا من اكابر امراء السلطان محمد والسلطان محمود ،  
وكان السلطان محمود قد جعله مع اخيه الملك طغرل اتابكا له ومديرا لدولته ،  
وشجعه على شق عصا الطاعة على اخيه طغرل وجمع له العساكر الكثيرة ، ومنذ  
ذلك الوقت بدأ شأن كندغدي يعظم وخطره يتفاقم ولكنه لم يلبث ان قضى نحبه  
في تلك السنة ، مخلصا ولدا صغيرا وزوجة هي التي زوجها السلطان محمود بعماد  
الدين زنكي<sup>٤</sup> .

#### ٥٧ . اقطاعه البصرة ٥١٨ هـ = ١١٢٤ م

ومن اشهر ما تذكره المصادر حول حياة عماد الدين السياسية  
اقطاعه البصرة عام ٥١٨ هـ = ١١٢٤ م . وسبب ذلك انه قد بلغ مسامع السلطان  
محمود بان العرب قد اجتمعت ونهبت البصرة ، فامر عماد الدين بالمسير اليها  
واقطعه اياها<sup>٥</sup> لما كان قد بلغه عنه من حمايته لها في العام الماضي . ثم انه

١ . ملوك الموصل ، ٥٠ . ٢ . ملوك الموصل ، ٥٠ .

٣ . ملوك الموصل ، ٥٠ . ٤ . ملوك الموصل ، ٥٠ .

٥ . ملوك الموصل ، ٥٢ ، " ستيفنسن "

اتى الى السلطان ايضا خبر بان الخليفة قد جمع عساكره كانما هو يريد الحرب فتقدم السلطان الى عماد الدين بمراعاة احوال واسط والنظر في امرها ، فان قدمها جند الخليفة حاول حفظها من غارات العرب . وهكذا كانت لعماد الدين في العراق مهمة مزدوجة ، ولاية البصرة وحماية واسط . فامر عماد الدين الى البصرة واقام فيها واحسن معاملة اهليها ، وامنهم شر غارات العرب ، وذلك بانه كان يرسل فرقا من جيشه الى اطراف البلاد فيوقعون بالاعراب الغزاة ، فأمنت البلاد على عهده ، وسارت شوطا بعيدا في طريق الاستقرار والاطمئنان ، وبلغ ذلك اسماع السلطان محمود فارتاح له واطمأن اليه وعظم شأنه عنده<sup>١</sup> .

#### ٠٨ ولاية شحنية ببغداد ٥١٩ هـ = ١١٢٥ م

وبعد ان تولى عماد الدين البصرة سنة ٥١٨ هـ ، تذكر الاصول خبر ولايته شحنية ببغداد عام ٥١٩ هـ = ١١٢٥ م . وكان ذلك على اثر نفرة حصلت بين برتقش الزكوى شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله ، فتهدده الخليفة فما كان منه الا ان سار الى السلطان في رجب سنة تسم عشرة وخمسائة للهجرة شاكيا من المسترشد بالله ، محدرا السلطان منه ، واخبره بانه قد جمع عساكره يريد منعه عن العراق . فجهز السلطان جيشا لمقاتلة جيش الخليفة وسار نحو بغداد ، فارسل اليه الخليفة ان لا يقترب من بغداد في هذه الآونة لخراب البلاد وللغلاء المستحوذ عليها باذلا له على الرجوع عن رأيه مالا كثيرا . ولكن السلطان لم يأبه بكل ذلك ، بل سار في حريقه الى بغداد حتى اذا بلغ الخبر مسامع الخليفة نزح هو واهله وحرمه وارباب المناصب الى الحانب الغربي من بغداد في ذى القعدة سنة ٥١٩ هـ = ١١٢٥ م وكان لنزوحه وقع سيئ لدى اهل بغداد ، فارسل اليه السلطان يستعصفه ويطلب اليه ان يعود الى داره ، فأرسل اليه الخليفة كتابا شديد اللهجة مما ادى الى غضب السلطان ومسيره الى العراق بجيوشه . فارسل الخليفة عفيلا الخادم في عسكر له الى واسط وكان فيها عماد الدين زنكي يحميها من الغارات ، حتى اذا وصل عفيذ حدود واسط ارسل اليه عماد الدين يحذره القتال ، يأمر ان يعود ادراجه ، فلم يلتفت

اليه بل واصل سيره حتى نزل بالجانب الغربي منها ، فعبر اليه زنكي وقاتله قتالا شديدا فهزمه واضطر جنده للهرب بعد ان قتل منهم الكثير وأسر اكثر . وفي هذه الاثناء وصل السلطان الى بغداد في ٢٠ ذى الحجة ونزل بمكان يعرف (بالشماسية) ودخل بعصر عسكره بغداد وكان الخليفة قد جمع اليه السفن جميعها وسد ابواب دار الخلافة الا واحدا منها امر حاجبه ابن صاحب بالمقام فيه وحفظه . ولم ينزل السلطان يرأسل الخليفة بالعودة ومطلب الصلح وهو يمتنع الى ان دخل بعصر عسكر السلطان دار الخلافة في محرم سنة ٥٢٠ هـ ونهبوا التاج ، نضح اهل بغداد وتنادى السلطان بالناس ، فجرت بين الفريقين مناوشات عظيمة كان بأثرها ان عبر الخليفة الى الجانب الشرقي من بغداد ومعه (٣٠ الف) مقاتل ، فحفروا الخنادق في الليل وحفظوا بغداد من عسكر السلطان . فلم ير السلطان بدا من الاستجداد بعماد الدين زنكي ، فأمره ان يحضر بنفسه ومعه المقاتلة في البر والماء وان يكثر من السفن مهما امكنه ، فجمع السفن من البصرة وواسط والبخايح ، ولم يترك ما بين بغداد والبصرة سفينة الا استصحبها وشحنها بالمقاتلة ، واصعد في البر والسفن تساييره في الماء ، فلما قرب بغداد نشر الاعلام واظهر السلاح واخرج بعصر من في السفن الى البر فأمتلأت الارض والماء رجالا وسلاحا ، فوأي الناس منظرا عجيبا ، وعظم ذلك في اعينهم ، وركب السلطان والمساكر ، فروا ما ملأ قلوبهم وعيونهم ، وازداد عماد الدين زنكي عند السلطان منزلة واستدل على كفايته وحسن سياسته<sup>١</sup> . حينئذ راسل الخليفة السلطان طالبا الصلح ، وترددت الرسل بينهما ، فاصطلحا وعاد ما كانا عليه واعتذر السلطان مما جرى .

واقام السلطان ببغداد الى عاشر ربيع الاخر ، ولما اراد الرحيل نظر فيمن يصلح ان يتولى شحنة بغداد والعراق ، يأمن معه من الخليفة ولضبط الامور فلم ير في امرائه واصحابه من يصلح لسد هذا الباب العظيم ، ويرقع هذا الخرق ويمنعه من الاتساع غير عماد الدين زنكي ، فوله شحنة العراق مضافا الى ما بيده من الاقطاع<sup>٢</sup>.

# ٠١ ولاية الموصل وسائر بلاد الجزيرة ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م

ومما يجب ذكره بعد تولية عماد الدين شحنة العراق ارتقاؤه الى ولاية الموصل في ١٠ رمضان ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م ، ولا اعتقد ان تاريخ ولايته على الموصل يستوجب الشك وذلك ان جميع المصادر التي بين ايدينا من اولى وثانوية تتفق كل الاتفاق على هذه السنة وهي سنة ٥٢١ هـ . وكانت الموصل اذ ذاك في يد اق سنقر البرسقي ويجدر بنا في هذه المناسبة ان نأتي على ذكر كيفية تولية عماد الدين الموصل على اثر وفاة صاحبها البرسقي . وقد اجمع الرواة على ان اق سنقر البرسقي قتل يوم الجمعة من سنة ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م في الجامع الضيق في مدينة الموصل ، وكان الذي تأمر على قتله جماعة من الباطنية على ما يقول صاحب ملوك الموصل ( ٥٨ ص ) ويوافقه في ذلك ( ابن الوردي ٢ : ٣٣ ، شيفنسن ١٢٢ ، وابن القلانسي ٢١٦ ) . وبعد مقتل البرسقي قام بالموصل ابنه عز الدين مسعود وارسل الى السلطان ان يقره على البلاد ، فأجابته الى ذلك ، وأقره على ما كان لابييه من الاعمال فضبض البلاد وقام فيها المقام المرضي<sup>٢</sup> . ولم يطل امره في ولايته الجديدة وذلك انه عاجلته منيته فقضى نحبه وهو لا يزال في عنفوان شبابه بعد مضي سنة من ولايته . ويؤرخ صاحب ملوك الموصل وفاته سنة ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م<sup>٣</sup> فحلفه في ولاية الموصل اخوه الاصغر ، وكان يساعده في تدبير اموره وتسيير دفة الحكم احد مماليك ابيه وهو الامير جاولي<sup>٤</sup> ، وفعل الوالي الجديد ما كان قد فعله اخوه الاكبر من ارساله الى السلطان يطلب اليه اقراره على البلاد باذلا على ذلك اموالا كثيرة<sup>٥</sup> ، وكان واسطة ذلك القاضي بهاء الدين ابا الحسن علي بن الشهرزوري ، وصلاح الدين محمد الباغسياني<sup>٦</sup> ، فحضرا اصبهان ليخاطبا السلطان في ذلك وكانا يخافان الامير جاولي ولا يرضيان بطاعته والتصرف

- 
- ٠١ ابن الاثير ١٠ : ٢٤٥ ، المقريزي ١ : ١ : ٣٥ ، ابن خلكان ١ : ٢٧١ ، الروضتين ٣٠ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، الحريري ٤٦ ، منقيوس ١٨٠ ، ابن الوردي ٢ : ٣٣ ، ابن القلانسي ٢١٧ ، باركر ٣٣ - ٣٤ ، شيفنسن ١٢٢ ، ملوك الموصل ٥٩ .  
 ٠٢ ملوك الموصل ٥٩ ٠٣ ملوك الموصل ٥٩ ٠٤ الحريري ٤٦ ، الروضتين ٣٠ ، ابن الوردي ٣٣ ٠٥ ملوك الموصل ٥٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٣  
 ٠٦ ملوك الموصل ٥٩ - ٦٥ ، الروضتين ٣٠ .

بحكمه ، فاجتمع صلاح الدين ونصير الدين جقر وهما من اعظم اصحاب عماد الدين منزلة ، وكان بين نصير الدين وصلاح الدين مصادرة فذكر له صلاح الدين ما قدم له فخوفه نصير الدين من جاولي وتحكمه على صاحبه وقال له أن رأيت ان تطلب البلاد لعماد الدين فهو الرأي فأجابه الى ذلك واخذه الى القاضي الشهرزوري وتحادثا معه ووعد نصير الدين ومناه وضمن له عن عماد الدين من الاملاك والاقطاع ما جاوز امله ، فأجاب بهاء الدين ايضا ، وركب هو وصلاح الدين الى دار الوزير وهو يومئذ انوشروان بن خالد فقال له " قد علمت انت والسلطان ان بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج عليهما وتمكنوا منها وقويت شوكتهم وقد كان البرسقي يكف بعصر عاديتهم فعد قتل ازداد طمعهم وهذا ولده طفل ولا بد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمي حوزتها وقد انبينا الحال اليك لئلا يجرى خلل او نقص على الاسلام والمسلمين فنحصل نحن بالاثم من الله واللوم من السلطان ، فانهى الوزير ذلك الى السلطان فقال - من تريان يصلح لهذه البلاد فقد نصحتنا لله وللمسلمين ؟ فذكرا جماعة بينهم عماد الدين زنكي ، وعظما محله اكثر من غيره ، فقال السلطان الى توليته لما علم من شهامته وكفايته وعقله لما تولاه ، فاستقر الحال وولاه البلاد جميعها وكتب منشوره الى بغداد<sup>١</sup> . وسار الزنكي الى البازيج يملكها<sup>٢</sup> ويتقوى بها ويجعلها ظهره ان صده جاولي عن البلاد ، فلما استولى عليها سار عنها الى الموصل فحين ان وصل خرج جاولي الى لقائه ، وقبل الارض ثم قبل يده وعاد في خدمته فاقطعه الشهيد الرحبة واعمالها وسيره اليها<sup>٣</sup> ، واقام هو بالموصل يصلح امورها ويقرر قواعدهما<sup>٤</sup> ، فولى نصير الدين دزدارية القلعة في الموصل وفوض اليه امر الولاية جميعها ، وجعل الدزدارية في قلاء البلاد لنصير الدين ايضا<sup>٥</sup> وجعل بهاء الدين قاضي قضاء بلاد جميعها<sup>٦</sup> . وجعل صلاح الدين محمد اليائسياني اميرا حاجبا .

- ١ . ملوك الموصل ٥٩ - ٦٥ ٠٢ ابن الاثير ١٠ : ٢٤٦
- ٢ . ملوك الموصل ٦٥ ٠٤ ابن الاثير ١٠ : ٢٤٦ ، الروضتين ٣٠ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ،
- ٣ . ملوك الموصل ٦٥ ٠٥ ابن الاثير ١٠ : ٢٤٦ ، ابن القلانسي ٢١٧
- ٤ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ملوك الموصل ٦٥ ، ابن القلانسي ٢١٧ ، الروضتين
- ٥ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٦ ، الروضتين ٣٠ ، ابن القلانسي ٢١٧ ، ملوك الموصل ٦٥



وهكذا تمت لعماد الدين ولاية الموصل وعظم شأنه عند السلطان وطار  
صيته في الافاق . ويجدر بنا قبل ان نجوز ذلك الى غيره من الاسبار ان نأتي  
بنظرة وجيزة على حال البلاد حين تولّاها عماد الدين زنكي واستبشار الجميع  
بهذا الوالي الجديد ، ومسير الموصل في عهده اشواطاً بعيدة نحو الاستقرار  
فنقول " كان الفرنج قد اتسعت بلادهم ، وكثرت اجنادهم ، وعظمت هيبتهم ، وزادت  
صولتهم ، وتضاعفت سطوتهم ، وعلا شرهم ، واشتد بطشهم ، وامتدت على بلاد الاسلام  
ايديهم ، وضعف اهلها من كف عاديّتهم ، متتابعات غزواتهم ، وساموا المسلمين سوء  
العذاب ، واستطار في البلاد شر شرهم ، وعم اهلها شدد جفهم معظّم قهرهم ،  
فنجوم سعد المسلمين متكدرة ، وسما غزم منفطرة ، وشمر اقبالهم منكورة ، ورايات  
المشركين خلال ديار الاسلام منشورة ، وانصارهم على اهل الايمان منهورة <sup>١</sup> وكانت  
مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين الى عريش مصر ، ولم يتخللها من  
ولاية المسلمين غير حلب وحمص وحماة ودمشق ، وكانت سواياهم تبلغ من ديار بكر  
الى آمد ، ومن ديار الجزيرة الى نصيبين . " فاستئصلوا مالها من أثاث وعين ، واما  
الركة وحرّان فقد كان اهلها معهم في ذل وصغار . . . . . وانقطعت الطرق الى  
دمشق الاعلى الرحبة والبر ، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف وركوب  
المفازة تعباً ومشقة ويخاطرون باموالهم وانفسهم . . . . . ثم زاد الامر وعظم الشر  
حتى جعلوا على كل بلد حاورهم خراجاً واثابة يأخذونها منهم ليكفوا ايديهم  
عنهم . . . . . فهاهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً ، وللكافرين قدرة واقتاراً .  
واما حلب فانهم اخذوا مناصفة اعمالهم ، واما باقي بلاد الشام فكان حالها اشد  
من هذه . . . . . فحينئذ اراد الله ان يسلط على الفرنج من سوء افعالهم ويجازيهم ،  
مرسل على شاعين الصليبان رجوماً منهم تهلكهم وتفتنهم ، فتولى الشهيد عماد الدين  
زنكي اميرهم ، ان لا امضى منه عزماً ، ولا انفذ منه سناناً ، فتولى رعاية الجمهور . . . .  
فغزا الفرنج في عقر دارهم ، فاصبحت اهلة الاسلام بيدرة بعد سرارها ، وشמוש  
الاسمان منيرة بعد طموس انوارها <sup>٢</sup> .

١ . ملوك الموصل ٥١

٢ . ملوك الموصل ٥١ - ٦٥

ولما فرغ زنكي من امر الموصل وتقرير قواعد الجنود ، سار نحو جزيرة ابن عمر فحصرها وبها يحضر ممالك البرستي ، فامتنع بها ثقة بحضانتها ، وظنا منه انها تحميه ، فراسله عماد الدين وبذل له ، وغبه ، فلم يصح الى ذلك ، حينئذ جد زنكي في قتالها ، وبينه وبين البلد دجلة ، فأمر الناس فالتقوا انفسهم في النهر ، بعضهم سياحة وبعضهم في السفن ، وتكاثروا على اهل الجزيرة ، وكانوا قد خرجوا عن البلد الى ارض تعرف بالزلاقة ، يمنعوا عبور الجند ، فعبرت العساكر ، والتقى الجيشان ، فانهزم عسكر الجزيرة ، فلما رأى اهل البلد ذلك راسلوا زنكي وطلبوا منه الامان ، فأجابهم الى ذلك وتسلم البلد ، ودخله وعسكره .<sup>١٠</sup>

دانت الجزيرة ، جزيرة ابن عمر ، لامر عماد الدين زنكي مخضع له من فيها وسار صيته في آفاقها وكان امره لا يزال آخذا بالتفاهم وسلطانه بالاتساع ، وكان عماد الدين الى جانب قوته ونفوذه وسلطانه كثير الضمج واسع الافق لا يرضى بما استولى عليه من البلاد ، بل هو يسعى لتوسيع نفوذه الى اكثر من ذلك لذا نراه يشن غاراته بمقود جيوشه بهجمات متتابعة شرقا وغربا ، يخضع البلاد ويحعلها تحت امره . خرج من الجزيرة بعد ان اقر سلطانه فيها وسار متجها نحو نصيبين ، وكانت اذ ذاك لحسام الدين بن تمر تاش بن ايلغازي صاحب ماردين وغيرها ، وما ان بلغ خبر سيره اليها مسامع صاحبها حسام الدين ، حتى قام اليه ليرثه عنها ، فسار الى ابن عمه ركن الدولة داود بن مسقمان صاحب حصن كيفا يطلب منه النجدة في دفع زنكي عن نصيبين ، فوعده خيرا وعاد حسام الدين الى ماردين . ويذكر صاحب كتاب ملوك الموصل ص ٦٧ ، ان حسام الدين المذكور بعد مقابلته لابن عمه ارسل رقاعا على احنة الطير الى نصيبين يعلم من بها من الاجناد انه وابن عمه ركن الدولة سائران في العساكر الكثيرة ، ويأمرهم بحفظ البلد ٣ ايام . ولكن لم يتم الامر لحسام الدين وذلك ان الصير الذي كان قد ارسله مع الرقاع قد سقط على احدى خيام محسكر زنكي وقد خانت من الشهيد هذا الثقافة الى الطير فأمر بصيده فصيد وأتى به اليه فوجد الرقعة فيه

١٠ ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ملوك الموصل ٦٦ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٣ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥

ففتحها فاذا بها الرقعة المذكورة : فأمر حينذاك بكتابة رقعة غيرها مؤداها  
 "من حسام الدين ، انني قصدت ابن عمي وقد وعدني بالنصرة والمسير في  
 العساكر وما يتأخر وصوله الينا اكثر من ٢٠ يوما ، ويأمرهم بحفظ البلد في هذه  
 الاونة " ، وشدها على جناح الحائر وارسله . جاء الحائر بالنبا الى حند حسام  
 الدين فالتقطوه مستبشرين ، ولكنهم لم يلبثوا ان قرءوا الرقعة حتى ارتعدت فرائصهم  
 خوفا وجزعا وتملكهم الشعور بالعجز عن حفظ البلد طيلة هذه المدة ، فاضطروا  
 لمصانعة زنكي ، وارسلوا اليه يسترضونه ويعرضون عليه القلعة ، فجاءهم عماد الدين  
 بجيوشه وتسلم القلعة وخضعت بذلك نصيبين لامره<sup>١</sup>.

بعد استيلائه على نصيبين سار عنها الى سنجار ، فامتعت عليه  
 وقاتله من بها ردحا من الزمن ولكنهم لم يصدوا لقوى عماد الدين فسلموها  
 اليه واصبحوا في خدمته<sup>٢</sup>.

ثم قصد زنكي بعد هذا الغايور فلم يستعصر عليه وملكه جميعه<sup>٣</sup>  
 واكمل عماد الدين طريقه الى حران<sup>٤</sup> وهي للمسلمين كان اهلها مع الفرنج في  
 ضيق عظيم<sup>٥</sup> وذلك لخلو البلاد من حام يذب عنها او سلطان يمنعها<sup>٦</sup> ، فلما  
 بلغ اهلها اخبار مسير عماد الدين استبشروا خيرا وراسلوه بالطاعة واستحثوه على  
 الوصول اليهم ، فسار اليهم محذرا<sup>٧</sup> وخرج اهلها للقاءه فتسلمها وشم له الامر فيها<sup>٨</sup>  
 ثم سار عماد الدين قاصدا مدينة الرحبة فاقتتحها قسرا واقطعها للامير حاوولي  
 مملوك البرسقي الذي مر معنا ذكره<sup>٩</sup>.

- 
- ١ . ملوك الموصل ٦٧ ، ايو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٣ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥
  - ٢ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ملوك الموصل ٦٧
  - ٣ . ابن الاثير ١٠ ، ٢٤٧ ، ايو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٣
  - ٤ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧
  - ٥ . ملوك الموصل ٦٧
  - ٦ . ايو الفداء ٢ : ٢٣٩
  - ٧ . ملوك الموصل ٦٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٣ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥ ، باركر ٣٤
  - ٨ . ملوك الموصل ٦٥ ، الروضتين ٣٠ ، ايو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٣

وهكذا تم لعماد الدين فتح القسم الأكبر من الجزيرة العامية بما فيها مدينة الزلاقة ، ونصيبين ، وسنجار ، والخابور ، وحرّان ، والرحبة . وكان عماد الدين تسوّله نفسه ان يتم فتوحاته في الشرق ولكن هناك حرجا منيعا يحول دهن ذلك ، او ان شئت فقل يزيد في صعوبة الفتح وخطورته ذلك ان قوة الفرنج التي كانت متمركزة حول الرها وما يليها من البلاد كانت تهدد عماد الدين وجميعه . فلم يجد عماد الدين لتتسيم فتوحه بدا من مهادنة الفرنج وامن جانبهم ، وعلى ذلك ، اسل جوسلين صاحب الرها وغيرها من البلاد يطلب منه المهادنة ، فلبى هذا الطلب واستقر الصلح بينهما<sup>١</sup> فوجد عماد الدين زكّي بعد هذا الصلح نفسه متفرغا للاستيلاء على ما يقى من البلاد الشامية والجزرية ، واصلاح شأنها<sup>٢</sup>.

ولا بد لنا قبل ان نختم الكلام عن ولاية عماد الدين الموصل من ان نذكر حادثة لحملها ابلغ واقع ما يمكن ان يقتزن باسمه في هذا الدور من حياته . ذلك انه في غضون سنة ٥٢١ هـ بعد ان استقر له الامر في الموصل وتقلد الاحكام فيها ، اوكل اليه السلطان محمود القيام بامر تهذيب وتربية ولديه الب ارسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي ، فاستحق بذلك لقب اتابك وهو لقب كان يمنحه السلاطين لمن يقوم بتربية اولادهم . وبعد هذا عرف عماد الدين زكّي ، "بالأتابك"

١٠ . ملكه حلب ٥٢٢ هـ = ١١٢٩ م

قلنا ان عماد الدين كان قد حاول مهادنة جوسلين صاحب الرها ليأمن جانبه فيمتفرغ للاستيلاء على ما بقى من البلاد الشامية والجزرية ، وكان قد تم له ما اراد من الاستقرار في البلاد التي فتحها ومن الاطمئنان من جانب الفرنج

١١ . ملوك الموصل ٦٩

٢ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٩ ، ملوك الموصل ٦٩ ، الروضتين ٣٠

٣ . ابن خلكان ١ : ٢٧٢ ، القرطبي ٢٧٩ ، الحنبلي ٤ + ١٢٨ ، كرد علي ٢ : ١٦

الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٤

، فأستمر في فتوحه نحو الغرب وأعظم ما يقرن باسمه من هذه الفتوح استيلاءه على مدينة حلب الشهباء المنبوعة في أول منضم عام ٥٢٢ هـ كما تظهر ذلك المصادر التي عرفت عليها<sup>١</sup> . وينفرد ابن القلانسي في رواية له في كتابه ص ٢١٨ بأن فتح عماد الدين لحلب كان في شهر شعبان من عام ٥٢١ هـ . ونحن لا يمكننا إلا أن ننظر إلى روايته هذه بنظر الشك والتريبه لانفرادها بها ، بين أن جميع المصادر سواء مجمعة على سنة ٥٢٢ هـ = ١١٢٩ م ، ونحن نعلم أن قواعد المصطلح لا تضمن لرواية انفرد بها راو واحد مهما بلغ من عدله وضبطه . قلنا ان عماد الدين استولى على حلب . ولا بد لنا ان نذكر في هذه المناسبة كلمة عن حالة حلب قبل ان يفتحها صاحبنا وكيف تم له فتحها .

كانت مدينة حلب منذ سنة ٥١٨ هـ خاضعة لامر البرسقي ولامرابه مسعود من بعده . على انه عندما قتل البرسقي في الموصل اضطربت الاحوال وحاول الافرنج اخذ حلب ونهبها<sup>٢</sup> مما اضطر مسعود لمغادرة المدينة واستنابته عنه اميرا اسمه (قومان) ثم اولى عليها اميرا آخر اسمه "قتلغ ايه" وسيرو بتوقيع الى قومان بتسليمها . فقال قومان لقتلغ "ان بيني وبين عز الدين علامة لم ارها ولا اسلم الا بها<sup>٣</sup> . وكانت العلامة بينهما صورة غزال ، فعاد قتلغ ايه الى مسعود وهو يحاصر الرحبة فوجده قد توفي فاضطر الى العودة الى حلب مسرعا ، وعرف الناس بموت الامير مسعود ، فسلم الرئيس "فضائل بن بديع" البلد واطاعه المقدمون به واستنزلوا قومان من القلعة ، واعطوه الف دينار ، وتسلم قتلغ القلعة في الرابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٢١ هـ .

ولكن يظهر ان قتلغ المذكور اخذ يسير السيرة في البلاد فأحاط أهلها بالعسف والظلم<sup>٤</sup> ، ولم يكتف بذلك ، بل اخذ يمد يده الى اموال الناس

١. ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ملك الموصل ٦٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٤ ، ايه الفداء ٢٣٩ : ٢ ، ابن الغزى ٣ : ٨٧ ، ابن الشحنة ١١٠ ، الترماني ٢٧٩ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥
٢. ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ابن الغزى ٣ : ٨٧ ، ابو الفداء ٢٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٤ ، كرد علي ٥ : ٢ ، الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٥
٣. ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ٠٤ ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، كرد علي ٢ : ٢

لا سيما الزكاة فنشرت منه قلوب الناس، وانصرفت عنه الى زعيم آخر في حلب سبق ان تولى عليها وهو "بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن ارتق" فالتف الناس حوله واضاعوه، وأمروه على انفسهم<sup>١</sup> . ثم اندم جمعوا فلولهم وقاموا ليلة الثلاثاء ثاني شوال وقبضوا على كل من كان بالبلك من اصحاب قتلغ وزحفوا الى القلعة<sup>٢</sup> يريدون قتلغ . ولكن هذا كان قد تحصن في قلعته وامتنع بها<sup>٣</sup> فسار اليه اصحاب سليمان بن عبد الجبار وحاصروه في القلعة . وفي هذه الاثناء وصل حلب حسان صاحب منبج<sup>٤</sup> و"حسن صاحب بزاعة" لاصلاح الامر فيها . ولكن لما زاد في الامر خضرة ان اخبار الاضرابات القائمة في حلب قد بلغت اسماع الفرنج وعلى رؤسهم جولسين صاحب الرها، وكان الفرنج قد استضعفوا بلاد الشام الاسلامة فتابعوا النارات على اهلها وقصدوها محاصرين لها لخلوها من حام ومانيق وقد قوى طمعهم في ملك ما بقي في يد المسلمين من البلاد، وكانت اضرابات حلب مناسبة حديدة لتدخلهم، لذا اراد جولسين هذا ان يغتتم الفرصة، فوصة هذا الاضراب ومضم حلب الى ملكه، فتقدم اليها بجيش جرار قصوع بمال فرجع عنها<sup>٥</sup> واضطرب حبل الامن في حلب، واشرف الناس على خطر عظيم الى منتصف ذي الحجة من السنة نفسها<sup>٦</sup> وكان عماد الدين صاحب الموصل والجزيرة قد سيرا الى حلب الامير سنقر دراز والامير حسن قرقوش<sup>٧</sup> وهما من اكابر امراء البرسقي، ومعه التوقيع من السلطان بالموصل والجزيرة والشام، فاستقر الامر ان يسير بدر الدولة بن عبد الجبار و(قتلغ ايه) الى الموصل، الى عماد الدين زنكي، فسارا اليه و<sup>٨</sup> قام حسن قرقوش بحلب واليا عليها ولاية مستعارة<sup>٩</sup>، فلما وصل بدر الدولة و(قتلغ) الى عماد الدين اصلح بينهما ولم يرد واحد منهما الى حلب . وسير حاجبه صلاح الدين محمد الياغيسانى اليها في عسكر فصعد الى القلعة وملكها ورتب الامور فيها<sup>١٠</sup> ثم سار عماد الدين بنفسه

- ١ . ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، الكامل لابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ابن الوردي ٢ : ٣٤ ، كرد علي ٢ : ٥
- ٢ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ٣ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٤
- ٣ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ابن الغزى ٣ : ٨٨ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩
- ٤ . الحريرى ٤٧ ، ابن الوردي ٢ : ٣٤ ، كرد علي ٢ : ٥
- ٥ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ٦ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٤
- ٧ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧
- ٨ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٨ ، ابو الفداء ٢ : ٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٤ ، كرد علي ٢ : ٥

الى بلاد الشام ، فلما سمع اهل حلب به وبقره منهم راسلوه يستغيثونه ، ويستنصرونه  
واذعنوا له بالطاعة ، فحبر الفرات وسار اليهم وملك مدينة منبج من حسان<sup>١</sup> ، وحصن  
بزاغة الذي كان في يد بني دمرdash<sup>٢</sup> ، ويظهر ان عماد الدين قد غدر باهل  
الحصن المذكور وقتل منه ما شاء واسر وسبي فتنصر القاضي و ٤٠٠ شخص من  
اهلها<sup>٣</sup>.

وسار زنكي بعد ذلك الى حلب فاستبشر به اهلها وتسلم البلد<sup>٤</sup>  
ويجدر بي ان اورد بالنصر ما ذكره صاحب كتاب الدولة الاتابكية ملوك الموصل من  
مجيء عماد الدين حلب واستبشار اهلها به . يقول ابن الاثير في كتابه الدولة  
الاتابكية ما نصه " وسار الى حلب فالتقاء اهلها ، واطهروا من الفرج والسرور ما لا  
يعلمه الا الله ، وكان ملكه لها سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، ولو لا ان الله من  
عليها بولاية الشهير<sup>٥</sup> ، لكان الفرنج قد استولوا عليها وعلى بلاد الشام ، فانهم كان  
لهم من اتابك طغديكين شاغل ومانع عن بحر اغراضهم ، وكانوا متى حصروا حلب وغيرها  
جمع طغديكين عسكره وسار نحوهم فيرحلون ، فقدد الله تعالى ان توفي سنة اثنتين  
وعشرين وخمسمائة فخلت البلاد بالمرءة وملكها الشهيد ، فاقام بها ليقدر قواعدها ،  
ويصلح امورها ، ويحمر ما خرب من بلدها بتوالي غارات الفرنج عليه ، ففرغ من جميع  
ما اراد<sup>٦</sup> . واستقرت الامور في حلب لعماد الدين فرتب امورها واتاد الامن فيها  
الى نصابه واقبح اعماله الاجناد والامراء<sup>٧</sup> ثم انه جعل على حلب واليا تذكره  
المصادر باسم ابي الحسن علي بن عبد الرزاق<sup>٨</sup>.

- 
- ٠١ القرمانى ٢٧٩ ، ملوك الموصل ٦٩ ، منقريوس ١٩٠ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩  
٠٢ ملوك الموصل ٦٩ ، ابن الشحنة ١٢٥ ، ابن الغزى ٣ : ٨٨ ، ستيفنسن ١٢٥ ،  
ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ٠٣ ابن القلانسي ٢٦٥ ، منقريوس ١٨٤  
٠٤ ابن الاثير ١٠ : ٢٤٨ ، ابن الغزى ٣ : ٨٨ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٤٣  
٠٥.. ملوك الموصل ٧٠  
٦ ابن الاثير ١٠ : ٢٤٨ ، القرمانى ٢٧٩ ، ابن الغزى ٣ : ٨٨ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩  
ابن الوردي ٢ : ٣٤ ، الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٥  
٠٧ ابن الاثير ١٠ : ٢٤٨ ، الحريرى ٤٧

# ١١٠ فتحه لمدينة حماة وحمص ٥٢٣ هـ = ١١٢٩ م

بعد ان ملك عماد الدين زنكي ، اتابك الموصل ، مدينة حلب ، وقضه له سوادها ، سارعها جنوبا الى مدينة حماة محاولا فتحها ، وكان ذلك في ٥٢٣ هـ يقول ابن الاثير في كامله الشهير ما نصه " في سنة ٥٢٣ هـ ملك عماد الدين زنكي صاحب الموصل مدينة حماة " <sup>١</sup> ، ولعلنا لنعدد الحق اذا ادعينا ان جميع المصادر الموثوقة التي وقفنا عليها تتفق وابن الاثير في هذا التاريخ <sup>٢</sup> .

ولنذكر الان ما هي الاسباب التي دعت اتابك لفتح هذه المدينة المتواضعة وكيفية فتحها . ان جميع المصادر متفقة على ان عماد الدين عبر الفرات الى الشام زاعما انه يريد جهاد الافرنج وارسل الى تاج الملوك بورى بن ضغاكين صاحب دمشق يستنجد به في ذلك ويطلب منه المعونة على جهادهم فأجابه هذا عليه وارسل من أخذ له العهود والمواثيق . فأطمأن قلب بورى الى ذلك وايقن ان عماد الدين سوف يتضافر واياء على جهاد الفرنج ولم يكن يفكر بان اتابك زنكي سوف ينقشر عهده ، وانه قد اتخذ هذه الدعوة وسيلة للوصول الى مآربه . فأرسل بورى الى ابنه سونج حاكم مدينة حماة حينذاك يأمره بالمسير الى زنكي وضم جيوشه الى جيوش المسلمين لمحاربة الفرنج . فثزل سونج عند ارادة والده وتجهز بجيش جرار لمقاولة عماد الدين والسير معه جنبا الى جنب لمقاتلة الفرنج وسار شمالا مغادرا مدينة الآمنة حتى وصل الى مقر زنكي بين حلب وحماه . فلم يلبث زنكي ان بلغه خبر وصوله فقام لاستقباله واحاطه بشتى انواع الحفاوة والكرم واستمر على ذلك مدة ايام حتى اذا وجد عماد الدين الفرصة سانحة غدر بضيوفه وقبض على سونج ولد تاج الملوك وعلى جماعة من امراء جيشه المقدمين ، ونهب خيامهم واعتقلهم وسبهم الى حلب ، وسار هو من يومه الى مدينة حماة فوصلها وهي خالية من الجند الحماة واهلها آمنون مطمئنون في عقر دورهم ، فملكها واستولى عليها دون ان يجد فيها ادنى مقاومة . وهكذا تم له الامر فيها <sup>٣</sup> .

١٠١ ابن الاثير ١٠ : ٢٥١

١٠٢ ملوك الموصل ٧٠ ، ابو الفداء ٣ : ٣ ، ابن الوردي ٢ : ٣٥ ، ابن القلانسي ٢٢٨ ، ستيفنسن ١٢٥ ، الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٥

١٠٣ ابن الاثير ١٠ : ٢٥١ ، منقريوس ١٨٠-١٨١ ، ابن الوردي ٢ : ٣٥ ، كرد علي ٢ : ٥ ، ابن القلانسي ٢٢٨ ، ستيفنسن ١٢٦ ، ابو الفداء ٣ : ٣



وبعد ان خضعت حماه لعماد الدين رحل عنها جنوبا الى حمص يريد فتحها ، فحاصرها مدة وقبض على صاحبها "قرجان بن قراجه" وطلب منه ان يأمر نوابه وولده الذين فيها بتسليمها ، فأرسل اليهم بالتسليم لكنهم ابوا الا ان يدافعوا عنها ويردوا خصومهم على اعقابهم . فشدد عماد الدين عليهم الحصار وقتلهم مدة طويلة ولكن شجاعة فرسانها المحادين حالت دون فتحها ، حتى اذا وجد عماد الدين نفسه عاجزا عن فتحها اضطر الى ان يرحل عنها ويعود الى الموصل حاملا شرف انتصاره على مدينتي حلب وحماه ونزالان عززه عن حمص . ولعلنا نجد ما يبرر رفع عماد الدين الحصار عن حمص في حلول فصل الشتاء عليه وهو محاصر كما يذكر ذلك (ستيفنس ١٢٦) والشتاء في حمص والبلاد الداخلية شديد الوطأة على من اعتاد العيش في العراق ، اضاف الى ذلك ان ابن الاثير واما الفداء يحدثاننا بأن جيوشا فرنجية اغارت على حلب مما اضطر عماد الدين حين بلغ الخبر الى رفع الحصار عن حمص والعودة الى حلب . ومما يكن من الامر فالمصادر مجمعة على ان عماد الدين شاد عن حمص ذائبا دون أن يظفر فيها بأي فتح او انتصار يذكر . وعند ما شاد الى حلب اطلق نسراج سونج بين خضعكين تاج الملوك صاحب حماه ، الذي ذكرنا امر اسره وبقي امرائه وذلك لقاء دية تبلغ الخمسين الف دينار<sup>١</sup> .

#### ١٢ . الحرب بين عماد الدين والملوك الارتقية . فتحه لمعكن الاتارب ، ودارا

واخذ عماد الدين جانب السلطان سعود في حربه مع اخيه الناصر في

السلطنة . ٥٢٤ هـ = ١١٣٠ م

في سنة اربع وعشرين وخمسمائة اجتمع "ركن الدولة داود بن سقمان" صاحب حمص كيفا وغيرها و"خسام الدين تورتاش بن ايلغازي صاحب ماردين" وهو ابن عم داود وانضم اليهما صاحب "آمد" وجمعوا من الامراء ما انتهت قدرتهم الى جمعه من التركمان ، وكان داود مصاعا عندهم ، فاجتمعوا في نحو عشرين الف مقاتل<sup>٢</sup> نصار اليهم عماد الدين زنكي ولقيهم بالقرب من (دارا) وهي لهم فاقتتلوا

١ . ابن الاثير ١١ : ص ٠٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٢

٢ . ابن الاثير ١٠ : ٢٥١

٣ . ابن الاثير ١٠ : ٢٥٣

قتالا شديدا ، حمد لهم عسكر زنكي ، وهو نحو اربعة آلاف فارس بشجاعتهم ، وصبر  
عسكر الارتقية لكثرتهم<sup>١</sup> ثم انجلت الموقعة عن غزيمة الارتقية ، عندها حاصر عماد  
الدين "سرجة"<sup>٢</sup> فملكها وانتقل الى (دارا) فملكها ايضا<sup>٣</sup>.

ولما فرغ عماد الدين من امر الارتقية وأمن شرهم ، سار الى بلاد  
الشام وأعد العدة ووطن نفسه على الجهاد وقصد حصن الاثارب ، وهو حصن حصين  
بين حلب ثلاثة فراسخ "ابن الاثير ١٠: ٢٥٠" ، ويقول كاتب مقال الموسوعة  
الاسلامية ان حصن الاثارب يقع بين حلب وانطاكية ونحو اللدليبيين (الموسوعة ٤: ١٢٢٥)  
وليس في الروايتين شيء من التصارب . ولعل السبب الذي حدا بزكي الى محاصرة  
هذا الحصن الصليبي الكبير ما كان يسببه هذا الحصن من الضرر الكبير على اهل  
حلب ، وذلك انه كان ملجأ للجنود الفرنج ، منه يغيرون على حلب وسواها ويأتون  
على ما حولها من البلاد بالسلب والسبي حتى ضجر اهل حلب وما يجاورها من  
ذلك ، فكان ذلك دافعا لعماد الدين زنكي بالمسير على الحصن ومنازلته وقاتل  
من فيه . يقول صاحب كتاب ملوك الموصل "وكان هذا الحصن اخر شيء على اهل  
حلب ، وكانوا مع من فيه من الفرنج ما بين حرب وضرب ، وقد اجتمع فيه من فرسان  
الفرنج ذوى البأس كل معروف بشدة المراس ، ان هو من اخطر ثغورهم ، وهو من  
المسلمين في ثغورهم ، فتابع الشئ يد قتالهم ، وادمن نزالهم ، وصب عليهم العذاب  
من كل مكان ، ومع هذا فقد حفظوا حصنهم واحسنوا الذب عنهم وعنه ، ولما علم  
ملك الفرنج الحال جمع الفرسان واستشارهم في الذي يصنعون ، وبأى حيلة في  
دفعه عن بلادهم يدافعون ، وبعد جدال طويل ، اشتهوا بجمع الفرسان والاجناد ،  
واحضروا من في اطراف البلاد ، وجمعوا الداني والقاصي ، والمطيع والمعاصي ،  
واقبلوا في جموعهم المحشورة ، وعساكرهم المجرورة ، واعلامهم المنشورة ، وصلبانهم  
وبنودهم ، وملوكهم وفرسانهم وكنودهم ، وجاءوا اليه ، والخوف قد عم رئيسهم وروسهم  
فهم منه خائفون ، يقدمون في مسيرهم رجلا وبؤخرون اخرى ، فلما تدانى الزحفان

٠١ ملوك الموصل ٧٠ ٠٢ ابن الاثير ١٠: ١٥٣

٠٣ ملوك الموصل ٧١ ، ابن الاثير ١٠: ٢٥٣

٠٤ ابن الاثير ١٠: ٢٥٢ ، ابو الفداء ٣: ٨٩ ز ليت للوردى ٢: ٣٥ ، كرد علي ٦: ٢  
ملوك الموصل ٧١ .

استشار الشيرازيين وزرراء وامراء فأشار اكثرهم بالعود الى حلب ومداولة الفرنج ان يتفرقوا ، فقال هذه خصة خسف تجرثهم علينا ، وتضعهم في ما لدينا ، لكن الرأي ان نستعين بالله عليهم ونقاتلهم فاما لنا واما علينا ، فلقبهم وشببت الحرب بين الفريقين ، واشتد الصحن والضرب ، فكثر فيهم الاسر والقتل ، فصال ملوكهم وقماحتهم وفرسانهم وقاتلوا قتال من ايسر من النجاة بالانحزام ، فامر الشهيد فيهم الاثخان ، ومنع من الاسر واعطاء الامان ، فمالت حثث القتلى تلك الصحراء ، فلما استمر له النصر وآل به الى الظفر الصبر ، رجع الى الحصن فملكه غنوة وقهرا ، وعم كل من فيه قتلا وسبيا وأسرا ، ولقد سمعت من يحكي ان عظام القتلى لم تزال بتلك الارض مدة طويلة ، ولما ملك الحصن اخبره ومحا اثره وازال من تلك الارض ضرره<sup>١</sup>

وهكذا قضى البصل عماد الدين زنكي على اهم شئ من شئور الصليبيين التي كانت لا تزال تهدد حياة المسلمين اذ ذاك وكيانهم في الشرق ، واخرب الحصن المذكور و"دكه دكا" على حد قول (ابن الاثير ١٠ : ٢٥٣ ، ابوالفداء ٤ : ٣

وبعد ان تم له امر تحريب الحصن سار الى حارم وهي قضاء من افضية حلب الى الشمال منها ، وحاصر حارم واستمر في التدقيق عليه حتى اضطر اهله لان يسألوه السلاح ويبدلوا له المناصفة على ولاية حارم فأجابهم الى ذلك "لان عسكره قد كثر فيهم القتلى والجراحات"<sup>٢</sup>

ولقد اتفق انه في غضون سنة ٥٢٥ هـ = ١١٣٠ م قضى السلطان (محمود بهذان) نحيبه ، فأضرب حبل الامن في بلاده على اثر ذلك وقامت المنازعات تدرّجاً فيها بين افراد أسرته كل يريد السلطنة لنفسه ويرى له الحق فيها . وذلك انه لما ملك السلطان محمود بهذان الأنف الذكر كان قد اتفق وزيره ابو القاسم النسابادي والاتبك سنقر الاحمدي على تولية ولده (داود بن محمود) بعد ابيه . وخطبوا له في جميع البلاد على ذلك . على أنه لم يلبث السلطان مسعود اخو السلطان محمود المتوفي ان سمع بوفاة اخيه حتى قام يتحالب بالسلطنة لنفسه

٠١ ملوك الموصل ٧١ - ٧٦

٠٢ ملوك الموصل ٧٦

واستولى على بعض ممالك اخيه ثم اراد المسير الى بغداد ولكن سبقه اليها اخوه (سلجوق شاه) ونزل بدار السلطنة، فلم يجد السلطان مسعود بدا من استمالة عماد الدين زنكي فارسل اليه يستجده، فأجابته زنكي الى ما طلب منه ووعده النصر فقبول بذلك نفر مسعود على طلب السلطنة<sup>١</sup> وسار عن الموصل يريد بغداد ومرت بتركيت ليجتمع بالسلطان مسعود الذي قد نزل "بحبسية الخالصة" قرب بغداد . فلما سمع سلجوق شاه بوصول عماد الدين تركيت ارسل عسكريه بقيادة "قراجه" فوصل هذا تركيت وحدثت بينه وبين عماد الدين موقعة انتهت باندحار زنكي وبيوشه واسر عدد كبير من اتباعه مما اضطره للرجوع الى الموصل حيث حاول جمع فلول جيشه ليعيد الكرة الى بغداد . ولكن في هذه الاثناء حدث ان جرت مناوشات بين مسعود واخيه سلجوق شاه انتهت بتراجع السلطان مسعود بسبب ما كان لاندحار زنكي من الوقع السيئ في نفوس مسعود واتباعه وضعف معنويات جيشه . على انه لم يلبث مسعود ان يعود ادراجته منهزما حتى ظهرت في ميدان القتال جيوش السلطان "سنجر" الجبرارة قادمة من خراسان ومعه الملك "ظفر بن السلطان محمد ليرتبه في السلطنة، فلم يجد الخليفة المسترشد بالله بدا من ان يطلب الى السلطان مسعود واخيه سلجوق شاه ان يضعوا اوزار الحرب بينهما ويتفقا على قتال عمهما السلطان سنجر<sup>٢</sup> ولكن يظهر ان السلطان سنجر كان قد اوعز من طرفه الى عماد الدين زنكي والى ديبس بن صدقة بالمسير الى العراق والاستيلاء عليه<sup>٣</sup>، لذلك ما لبث زنكي ان وصل الموصل وجمع فلول جيشه حتى عاد الى بغداد يمسح عنه أثر الهزيمة المنكرة التي حلت به وبجيشه منذ حين . واتفق انه في هذا الوقت نفسه كان قد وصل بغداد ايظ من الحملة ديبس بن صدقة المذكور والتقى جميعا في بغداد . فلما بلغ ذلك سامع الخليفة المسترشد بالله وكان حينذاك (بخانقين) عاد منها مسرعا مع السلطان مسعود ليرد زنكي وديبس عن بغداد، فجرت بين الفريقين معارك حاسمة انتهت بهزيمة ديبس اولا واندحار زنكي وعودته الى الموصل<sup>٤</sup>.

١٠ ابن الاثير ١٠ : ٢٥٧ ٠٢ ملوك الموصل (٧٦ - ٧٩

٠٣ ابن الاثير ١٠ : ٢٥٩ ٠٤ ملوك الموصل ٨٣

وقد يجدر بنا ونحن ندرس زنكي ان نأتي على ذكر خبره مع (دييسر بن صدقة) لما كان بين هذا وذاك من عظيم الدلة . فلقد كان ديسر هذا ينحدر من سلالة عربية، وكانت اليه ولاية الحلة<sup>١</sup> . وكان على ما تقوله بعض المصادر رجلا شريفا حاول اكثر من مرة الايقاع بعماد الدين زنكي والغدر به . يقول ابن الاثير في ملوك الموصل ما نصه<sup>٢</sup> وكان ديسر شريفا ومن أشد الناس عداوة للشهيد عماد الدين واكثرهم وقية فيه<sup>٣</sup> . ولقد حدث أن امير (خرخدا) وهو حصن حصون الشام قد توفي وخلف زوجة، فأشار اليها بعض اصحابها ان تتصل باحد الامراء الاكابر صلة تزواج لحل هذا الامر يساعدنا على بست نفوذها على هذا الحدين . فلم تجد اميرا عوا جدر بهذا المقام من ديسر بن صدقة، فارسلت اليه تستقدمه، فسار هذا الى الشام ولكنه ضل طريقه، فخرج اليه قوم من بني كلب<sup>٤</sup> واسروه وسلموه الى تاج الملوك بن طنكبن صاحب دمشق . فلما ان بلغ ذلك مسامع عماد الدين حتى ارسل الى صاحب الشام يطلب اليه تسليم صاحبه ديسر، وبذل له في ذلك الاموال . فأبى تاج الملوك ان ينزل عند ارادة زنكي فاصر عليه زنكي بتسليم ديسر والا قصد بلاده واتى عليها بالسلب والنهب . فوجد تاج الملوك نفسه مضطرا الى تلبية طلب عماد الدين على ذلك يسترسل ابن الاثير في كتابه ملوك الموصل ص ٨٤، زاعما أن تسليم تاج الملوك لدييسر كان على اثر تهديد زنكي له . على ان بقية المصادر كأبي الفداء وابن خلدون وابن الوردي وغيرهم تدعي ان تاج الملوك لم يرصر بتسليم ديسر الا على اساس ان يسلم زنكي سونج لايبة تاج الملوك مقابل تسليمه ديسر . فسلم زنكي سونج الى ابيه وتسلم هو بدوره مقابل ذلك ديسر بن صدقة<sup>٥</sup> . فلما صار عنده جازى اساءته باحسان وانعم عليه واعطاه المال والخيام والسيل وكلما يحتاج اليه الملوك وبالغ في اكرامه .<sup>٦</sup> على انه يظهر ان خبر اسر ديسر بلغ مسامع المسترشد بالله، فامتعض لذلك وارسل مع سديد الدولة بن الانباري صاحب ديوان الانشاء ببيغداد الى تاج الملوك يطلب

١ ابن الاثير ١٠: ٢٥٤ ٢ ملوك الموصل ٨٣

٣ ابن الاثير ١٠: ٢٥٥ ٤ ابن الاثير ١٠: ٢٥٥

٥ ملوك الموصل ٨٤، ابن خلدون ٤: ٢٨٩، ابن الوردي ٢: ٣٧

منه تسليم ديبس ولم يكن للخليفة اذ ذاك علم بان عماد الدين كان قد سبقه في ذلك . فلما وصل الرسول دمشق وعلم بعصير ديبس اشنع القول في عماد الدين وذكره بما يكرهه فاتعل ذلك بعماد الدين فامتعض وامر جنده بحمل الانباري ، فحمل اليه فحبسه بالموصل ولكن الخليفة توسط لدى زنكي باطلاق سراحه فاطلقه واحسن اليه كما ذكر ذلك صاحب ملوك الموصل ( ٨٤ ) .

#### ٠٩٣ . الحرب بين الخليفة المسترشد بالله و عماد الدين زنكي

ثم انه في ربيع الاول من عام ٥٢٧ هـ = ١١٣٢ م سار الخليفة المسترشد بالله من بغداد الى الرملة حيث نظم جيشا كبيرا وكان قد قصد عدة امراء من العساكر السلطانية ، فقوى المسترشد بذلك واستبد بالعراق ردحا من الزمن وجبى الاموال وارسل الامام ابا الفتح الاسفرايني الواعظ الى عماد الدين قي قصد لم تأت الرواة على ذكره ، وانما هي تذكر ان الواعظ المذكور عندما قابل عماد الدين اهانه واغلظ له في القول فلم يكن من عماد الدين الا ان قابله بالمثل وبالغ في اهانتة . فثارت بذلك حفيظة الامام ابر الفتح وطاد الى بغداد ونفسه تجبر غضبا وقهر ما جرى له الى الخليفة فغضب الخليفة لذلك وسار الى الموصل في ( ٣٠ الفا ) يريد مقاتلة عماد الدين زنكي . فما ان بلغ هذا خبر سير الخليفة اليه ، حتى تاهب للرحيل عن الموصل في جمع من عساكره بعد ان انا ب عنه فيها نصير الدين جقرا ، وتابع سيره حتى وصل منطقة سنجار وكان في هذه الاثناء قدوم المسترشد بالله على الموصل بجيشه الجرار ، فحاصر المدينة ولكن لم يستطع ان يظفر بها وذلك لان نصير الدين جقرا كان قد حصن المدينة واحسن حفظها وقام فيها المقام المضي . اضاف الى ذلك ان عماد الدين زنكي كان من ناحيته يرسل سرايا تقاتل جيش الخليفة وتقطع الميرة عنهم من كل صوب ، فعزّت الاقوات عنهم وقتل الكثير منهم ولكنهم تابروا على حذارهم عسى ان تكون الغلبة في النهاية في جانبهم ، واستمروا في الحذار مدة لا تقل عن الثلاثة

اشهر، كانت النتيجة فيها ان خابت مساعيهم ولم يظفروا بالمدينة فنادروها عائدتين الى بغداد . ويذكر صاحب ملوك الموصل خبر بعض مراسلات صلحية ناجحة جرت بين الخليفة وبين عماد الدين انتهت بعقد الصلح بينهما ، فيقول \* وارسل اتابك الشهيد نصالحه وسير اليه الشهيد الخدم والهدايا .<sup>١</sup>

#### ١٤٠ . ملكه للقلاع الاكراد الحميدية ٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م

انتهت سنة ٥٢٧ هـ = ١١٣٢ م بذلك الصلح الذي قام بين الشهيد وبين الخليفة المسترشد بالله ، وعاد كل من الفريقين الى بلده فاستقر الخليفة في بغداد ودخل عماد الدين الموصل يسوى فيها ما افسده الحصار ويقر الامور فيها ، فلم تنته السنة هذه وتبدأ طلائع السنة الجديدة حتى كانت قد استقرت الامور في الموصل على غايتها وعادت الحياة الى مجاريها ، فلقى عماد الدين بذلك فيضا من قوته وفراغا من وقته ليقوم ببعسر الفتح . فالتفت حوله فلم يجد سوى القلاع الحميدية المنتشرة في جوانب مملكته ، فأراد الانتفاة عليها ليأمن شرها وشر أهلها . وكان ذلك عام ٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م<sup>٢</sup> باجماع الروايات سوى رواية واحدة انفرد بها صاحب الروضتين تجعل تاريخ الاستيلاء في عام ٥٢٩ هـ (الروضتين ٣١) ونحن لا يمكننا في هذه المناسبة الا ان نسير على المنهاج الذي اتبعناه آنفا في مثل هذه القضايا متبعين في ذلك قواعد مصطلح التاريخ فنرد رواية الروضتين لاجماع بقية الروايات الاولى والثانية على نقضها ، وخصوصا ابن الاثير في كتابيه (ملوك الموصل ، والكامل) سار عماد الدين زنكي في غضون سنة ٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م الى القلاع الحميدية وحاصرها مدة طويلة وقاتل أهلها قتالا شديدا حتى اخضعها فملك (قلعة العقر)<sup>٣</sup> ثم سار منها الى (قلعة الشوش)<sup>٤</sup> فملكها ايضا<sup>٥</sup> . وكما انفرد صاحب الروضتين في روايته عن تاريخ استيلاء عماد الدين على القلاع الحميدية كذلك ينفرد في ذكر استيلاء عماد الدين على (قلعة الشعباني) التي هي من اعظم قلاعهم<sup>٦</sup> . ويضيف ابن الوردي الى ذلك قلاع الهكارية وكواشي<sup>٧</sup>.

١ . ملوك الموصل ٨٦ ٢ . ابن الاثير ١١ : ٥ ، ملوك الموصل  
٣ . ابن الاثير ١١ : ٥ ٤ . ابن الاثير ١١ : ٥ ٥ . ابن الاثير ١١ : ٥ ، ملوك الموصل  
٨٦ ، ابو الفداء ٣ : ٨ ٦ . الروضتين ٣٦ ٧ . ابن الوردي ٢ : ٣٩

وقد اتفقت الرواة على ان سبب استيلاء عماد الدين على القلاع الحميدية هو غضبه من بعض الامراء القائمين عليها ، والذين ساعدوا الخليفة المسترشد بالله في حصار الموصل وقاتل عماد الدين زنكي ، فأغار عماد الدين عليهم وازال سلطتهم نهائيا . ويقول صاحب ملوك الموصل "وسبب قسدها انه لما ملك الموصل واعمالها اقر الامير عيسى الحميدى على ولايته ولم يتمرر في شيء مما بيده ، فلما حصر المسترشد بالله الموصل حضر الامير عيسى عنده في جنده وجسوعه وامده بالاقوات وغيرها مما يحتاج اليه ، فلما عاد المسترشد بالله عن الموصل امر الشهاب بحصر قلاع الحميدية فحوصرت مدة طويلة وقوتلت قتالا شديدا الى ان فتحت في هذه السنة واضمان اهل سواد الموصل المجاورين<sup>١</sup> ولا تختلف بقية الروايات عن مضمون هذه الرواية السالفة فالجميع يرون ان السبب الرئيسي لاستيلاء عماد الدين على القلاع الحميدية هو ان الامير عيسى الحميدى الذى كان قد اقره عماد الدين على هذه القلاع ، واسبغ عليه ضروب الانعام ، كفر بنعمة عماد الدين وقام يساعد الخليفة المسترشد بالله في حربه وحصاره الموصل ويرسل له الجسوع والاقوات مما اغاظ عماد الدين واثار حفيظته عليه ، فقام بما ذكرناه من حصار الحصون وقاتل ولائها واصحابها .

ونحن لا يمكننا الا ان نقر ما تذكره المصادر في هذا الصدد الا اننا نرى انه الى جانب هذا السبب الظاهري لاستيلاء عماد الدين على القلاع الحميدية ، كان هناك سبب باطني لعله اعرق وابلع في نظارنا من حجة الرواة . وذلك ان عماد الدين ذلك البطل الناشي كان يرى ان مسيحيته ونفوذه لا يمكن ان يستقرا الا اذا استولى على ما حوله من مراكز القوة والهجوم وامن شر الغزوات وكان عماد الدين يجد من وقته متسعا ومن قوته فيضا لمثل هذا الاستيلاء ، فاقدم عليه ، واعتذر عن فعلته بان اصحاب هذه القلاع قاتلوه ، وناصروا عدوه الخليفة عليه فاستحقوا العقاب العارم ، وما اكثر ما يفعل الاقوياء بالضعفاء ، كما فعل عماد الدين زنكي باصحاب القلاع ، وهم يحتجون بحجج واهية ما انزل الله بها من سلطان .

١ . ملوك الموصل ، ٨٦ ، ابن الاثير ١١ : ٥



## ١٥ . زنكي يحاصر آسد وملك قلعة الصور

ولم يكتف عماد الدين بالقلاع التي استولى عليها حتى الآن ، بل قد سار في غضون السنة المذكورة<sup>١</sup> الى (آمد) وكان مسيره الى هذه القلعة بصحبة تمرناش صاحب ماردين<sup>٢</sup> ، فلما بلغ ذلك اسماع صاحب الحصن ارسل الى داود بن سقمان صاحب حصن كيفا يستنجد<sup>٣</sup> ، فجمع هذا عساكره وسار يريد الحصن فالتقى بجيش زنكي وتمرناش واقتتل الفريقان ردحا من الزمن حتى انهزم داود سقمان وعاد مكسورا وقد قتل جمع كبير من عسكره<sup>٤</sup> . فاقام زنكي وتمرناش على آمد محاصرين لها وقطعا الشجر<sup>٥</sup> ، ولكن يظهر ان مناعة الحصن حالت دون الاستيلاء عليه ، فاضطر عماد الدين على الرجوع صفر اليدين من غير ان يبلغ غرضه ، وفيما هو راجع اغار على قلعة الصور من ديار بكر<sup>٦</sup> وحصرها وضائقها حتى ادعت لقوته فملكها في رجب من هذه السنة على ما يذكره صاحب الكامل (ابن الاثير ١١: ٥) ، وما يذكره ابن القلانسي (٢٤٣) . ويذكر ابن القلانسي ان الشهيد بعد ان ملك حصن الصور سلمه الى "حسام الدين تمرناش"<sup>٧</sup> .

## ١٦ . زنكي والخلاف بين الخليفة المسترشد بالله والسلطان مسعود ٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م

تم لزنكي امر الاستيلاء على القلاع الحميدية ، والسيطرة على قسم كبير من سورية واصبح له الامر والنهي فيما آل اليه من البلاد . ومضت الايام وخطر زنكي لا يزال آخذ بالتفاقم ونفوذه آخذاً بالاتساع ، ولم يكن زنكي ليمر على هذه السنة دون ان يترك فيها اثرا بارزا تردده المحادر ، ذلك اشتراكه في الخلاف الذي قام في غضون هذه السنة بين السلطان مسعود والخليفة المسترشد بالله . وكان مسعود هذا سنة ٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م ببغداد وقد ضعف امره وقوى امر اخيه الملك طغرل وملك سائر بلاد الجبل<sup>٨</sup> ، فراسل السلطان مسعود المسترشد بالله

١ . ابن الاثير ١١: ٥ ملوك الموصل ٨٦ ، ابن القلانسي ٢٤٣

٢ . ابن الاثير ١١: ٥ ، ابن القلانسي ٢٤٣ ٣ . ابن الاثير ١١: ٥ ، الروضتين ٣١

٤ . ابن الاثير ١١: ٥ ، ابن القلانسي ٢٤٣ ٥ . ابن الاثير ١١: ٥ ، ابن القلانسي ٢٤٣

٦ . ابن الاثير ١١: ٥ ٧ . ابن القلانسي ٢٤٣

٨ . ملوك الموصل ٨٧

يستميله ويطلب منه المساعدة على اخيه طغرل فاجيب الى ذلك<sup>١</sup>، وامدّه الخليفة بالاموال والرجال، وكان في الوقت نفسه السلطان سنجر يعد طغرل بالمساعدة . لقد تأخر السلطان مسعود بالمسير فارسل المسترشد بالله يأمره بالاسراع في الرحيل ودفع اخيه عن البلاد، ولكن السلطان مسعود لم يحرك ساكنا . فاغتاظ الخليفة وارسل اليه الخبر تلو الخبر يستثيره على المسير الى ابيه، حتى اضطر اخيرا الى ان يجمع الجموع ويجند الجنود استعدادا للرحيل . فيما هو كذلك جاءه خبر وفاة اخيه طغرل في المحرم من سنة ٥٢٩ هـ، فرحل الى همدان مسرعا، فاجتمعت العساكر لملاقاته فهزمهم، فولوا مدبرين نحو بغداد، فوصلوها واخبر الخليفة المسترشد بالله بسوء قصد السلطان مسعود وحشوه على حربه واعدين بالمساعدة . اقتنع الخليفة اخيرا ان يجمع الجموع ليسير الى قتال مسعود اعتمادا على مساعدة الكثيرين من اصحاب الاطراف . سار الخليفة عن بغداد يريد لقاء السلطان مسعود وقد اتاب عنه فيها جمال الدولة<sup>٢</sup> اقبال في ٣ آلف فارس .

ولم يأل الخليفة جهدا في استمالة اصحاب الاطراف، ولكن مسعود حاول استحلابهم اليه فنجح في ذلك ولحق به اكثرهم حتى بلغ جيشه خمسة عشر الفا بعد ان كان ٣ الاف (ملوك الموصل ٨٧) ومما زاد في قوته وخطره ان انضم اليه عماد الدين زنكي وارسل اليه نحدة . فاتحم الجيشان واكثر القتل والاسر في عسكر الخليفة ثم القي القبض على الخليفة نفسه وعلى بعض وزرائه وحاشيته وادعوا السجن<sup>٤</sup> . ثم ان السلطان مسعود ارسل من قبله رسولا تدعوه المصادر<sup>٥</sup> "بك ابيه" الى بغداد فدخلها وقبض على جميع املاك الخليفة وبذلك ثارت الفتنة في بغداد<sup>٥</sup> وتذكر المصادر ان نفرا من الباطنية لا يتجاوزون الاربعة والعشرين هجموا على الخليفة وقتلوه وبايعوا بالخلافة بعده الامير ابا جعفر المنصور بن المسترشد بالله في يوم الاثنين السادس والعشرين من ذي القعدة ٥٢٩ هـ = ١١٣٥ م<sup>٦</sup>

٠٢ ملوك الموصل ٨٧، ابن الاثير ٨ : ١١

٠٤ ملوك الموصل ٩٠

٠١ ابن الاثير ٧ : ١١

٠٣ ملوك الموصل، ٨٧

٠٥ ملوك الموصل ٩٠

٠٦ ملوك الموصل ٩١

١٧٠ زنكي يحاصر دمشق ٥٢١ هـ = ١١٣٥ م

عمّت الفتن البلاد واضرب جبل الامن فيها ، وثارت بغداد محتجة على اعمال السلطان مسعود وقيامه بالثورات على الخليفة ومحاولة نزع السلطة منه . في هذه الاثناء وقبل مقتل الخليفة المسترشد ، قام بعض الظالمين يلعبون دورهم ويسعون لتحقيق غاياتهم . وانها لعمري فرصة سانحة لمن يريد ان يصيب هدفه ومن احق من زنكي ان يقوم ويغتنم فرصة هذه الاضطرابات ليكمل فتوحاته ويثبت قدمه . وفي الواقع قام زنكي في اول جمادى الاولى من سنة ٥٢١ هـ نفسها<sup>١</sup> وسار جنوبا نحو دمشق يريد محاصرتها ، وكان الخليفة اذ ذاك مستبكا والسلطان مسعود في الفتن . ودمشق كما يعلم الجميع ذات موقع له اهميته من الناحيتين الحربية والتجارية (باركو ٣٥) وارسل الرسل الى صاحب مدينة دمشق شمس الملوك اسماعيل بن تاج الملوك بورق بن طالكن<sup>٢</sup> يطلب اليه ان يتنازل عن ولايته ويسلمه مدينة دمشق ، فوصلت الرسل الى المدينة لتقرير قواعد السلم ، ولكن لم يلبثوا ان علموا بمقتل شمس الملوك حتى عادوا الى زنكي مكرمين محترمين واخبروه الخبر بمقتل صاحب دمشق شمس الملوك<sup>٣</sup> بمؤامرة دبرتها والدته صفوة الملك خاتون<sup>٤</sup> (ابن القلانسي ٢٤٦) وسبب قتله انه ركب طريقا من الظلم ومصادرات العمال وغيرهم وبالع في العقوبات لاستخراج الاموال<sup>٥</sup> ، كما اخبروه ايضا بان الشعب متفق على عاعة شهاب الدين والامر مستقر له<sup>٦</sup> . ولكن عماد الدين زنكي لم يحفل بكل هذا بل سار الى الشام حتى وصل ظاهر دمشق وخيم بارض عذراء الى ارض القصير في عسكر كثيف الجمع (ابن القلانسي ٢٤٦) وحاصر المدينة فقرأ أهلها صده عنها ومحاربتها (ابن القلانسي ٢٤٧) وصعدوا في الدفاع عنها ، وكان الوزير معين الدين انر قد تولى امر تنظيم الدفاع ، مما اضطر زنكي ان ينتقل من محله الاول الى ميدان الحصى<sup>٧</sup> واخذ يقاتل جندها فرأى قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة واتفاقا تاما

- ١٠١ ابو الفداء ٩: ٣ ، ابن القلانسي ٢٤٥ ٠٢ ابن الاثير ٨: ١١ ابن القلانسي ٢٤٥  
٠٣ ابن الاثير ٨: ١١ ٠٤ ابن الاثير ٨: ١١ ٠٥ ابن الاثير ٨: ١١  
٠٦ ابن الاثير ٨: ١١  
٠٧ ابن الاثير ٩: ١١

على محاربته وارجاعه عنها<sup>١</sup>، ثم انه في هذه الاثناء اقبل اليه الرئيس بشر بن كريم بن بشر الجزري<sup>٢</sup> من قبل المسترشد بالله بخلع اعدت اليه وبخلع امر الخليفة بخلع صاحب دمشق الملك محمود، فنزل اتابك عند امر الخليفة ورحل عن الشام لليلتين مضيئ من جمادى الاولى سنة ٥٢١ هـ = ١١٣٤ م<sup>٣</sup>.

## ١٨. الحرب بين الخليفة والسلطان مسعود والتجاء الخليفة الى الموصل

سنة ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م

وهكذا انقضت سنة ٥٢٩ هـ دون ان يحدث زكي فيها فتحا ذا اثر بارز يذكر. وتلتها سنة ٥٣٠ هـ. ولعل اشهر ما ترويه المصادر عن اخبار هذه السنة سير الخليفة الراشد بالله الى الموصل مع اتابك زكي، وسبب التجاء الخليفة الى الموصل ان تألب العسكر على السلطان مسعود واجمعوا على قتاله وتولية سلطان آخر يرتضونه، وقرروا الاجتماع في بغداد للمداولة في هذا الامر، فسار الامراء من جميع الجهات الى بغداد للاشتراك بهذا الاجتماع، فكان فيمن سار اليها من الموصل اتابك عماد الدين زكي، وحضر هذا الاجتماع الحام الخليفة نفسه الراشد بالله، ويظهر ان الامراء اثروا عليه واقنعوه بوجوب الخروج معهم عن بغداد لمحاربة السلطان مسعود، فأجابهم الى ذلك واجتمعوا على هذا العزم في صيف سنة ٥٣٠ هـ. ولكن ظهر للخليفة تلون من بعض اصحابه، فالتقى القبر على جماعة منهم وبينهم وزيره جلال الدين ابو الرضى محمد بن احمد بن صدقة<sup>٤</sup> وجمال الدولة اقبال المسترشد<sup>٥</sup>، وسار وموكبه الى اتابك الشهيد ونزل في خيمته<sup>٦</sup>. وتذكر المصادر ان زكي اخذ يتشفع لدى الخليفة على هؤلاء الذين القي القبر عليهم، فاطلق الخليفة الراشد بالله سراحهم وسلم اقبال المسترشد الى الشهيد<sup>٧</sup> لانه اظهر من العناية بامره اكثر من غيره، فأكرمه زكي واحسن اليه. على انه في هذه الاثناء ورد الخبر بان الملك سلجوق شاه بن السلطان محمد

١٠. ابن الاثير ٩: ١١ ٠٢. ابن الاثير ٩: ١١، ابن القلانسي ٢٤٨

٠٣. ابن القلانسي ٢٤٨، ابن الاثير ٩: ١١، ابو الفداء ٩: ٣

٠٤. ابن الاثير ١٥: ١١ ٠٥. ابن الاثير ١٥: ١١

٠٦. ابن الاثير ١٥: ١١ ٠٧. ابن الاثير ١٥: ١١

قد وصل الى واسط في جمادى الاولى في عسكر كثير فانحدر الاتابك اليه ليحاربه .  
ويظهر ان خلافا وقع بين سلجوق شاه واتابكه البتشر فاستغل اتابك زنكي هذا  
الخلاف واستمال اليه البتشر وفارقوا سلجوق شاه وعاد عماد الدين ومن معه الى  
بغداد . فتبعه اليها السلطان مسعود<sup>١</sup> ، عندها خرج الخليفة الراشد بالله من  
دار الخلافة ونزل على عماد الدين ملتجأ وسار معه الى الموصل تاركا بغداد<sup>٢</sup>  
فدخلها السلطان مسعود واستقر له الامر فيها في ذر القعدة من السنة المذكورة  
وعزم على خلع الخليفة الراشد واخذ البيعة لغيره فوافقه على ذلك الامراء وارباب  
المناصب في بغداد ، فاحضر القضاة والشهود والفقهاء وقرروا خلع من الخلافة  
واخذ البيعة الى ابي عبد الله . فلما وصل الخبر الى الراشد بالله الخليفة  
السابق والى عماد الدين زنكي ، ارسل كل منهما رسولا الى السلطان ، فاعرض هذا  
عن رسول الخليفة واقبل على رسول عماد الدين ، وكمال الدين ابو الفضل محمد  
بن عبد الله الشاذلي رزوى فاكروهم ، واقطع الخليفة الجديد زنكي صريخين ودرب هرون  
وزاد في القايه ونال زنكي في ذلك ما لم ينله غيره من امراء الاطراف<sup>٣</sup> . اما  
الخليفة الراشد بالله ، الخليفة المخلوع ، فقد خرج الى اذربيجان بناء على طلب  
السلطان سنجر فتصدى له جماعة من الباطنية<sup>٤</sup> ، وقتلوه في السابع والعشرين من  
رمضان سنة ٥٣٢ هـ<sup>٥</sup> .

### ١١٩ . غزو العسكر الاتابكي بلاد الفرنج ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م - ١١٣٦ م

وقبل ان نظوى صفحة على اخبار عام ٥٣٠ هـ لا بد لنا من ان نأتي  
على ذكر ما قام به عسكر الاتابك عماد الدين زنكي من غزو بلاد الفرنج . فان  
المصادر تذكر انه في غضون سنة ٥٣٠ هـ<sup>٦</sup> سارت عساكر عماد الدين من حلب وحماه  
يريدون غزو الفرنج وكان على رأسهم اسوار نائب زنكي في مدينة حلب<sup>٧</sup> ، قادهم اسوار

- ١ . ابن الاثير ١١ : ١٥ ، سنقيوس ١٨٢ . ٢ . ملوك الموصل ٩١ ، المقريزي ١ : ١ : ٣٧
- ٣ . ملوك الموصل ٩١ . ٤ . الروضتين ٣١ ، ابو الفداء ٣ : ١٤
- ٥ . الروضتين ٣١ ، ابو الفداء ٣ : ١٤ ، المقريزي ١ : ١ : ٣٧
- ٦ . ابن الاثير ١١ : ١٦ ، ابن الوردي ٢ : ٤٠
- ٧ . ابن الاثير ١١ : ١٦ ، ابن الوردي ٢ : ٤٠

حتى وصلوا نواحي مدينة اللاذقية<sup>١</sup>، فهاجموا الفرنج ووقعوا بهم حتى اذا ظفروا بهم نهبوه وقتلوهم واسروهم "فعدلوا ما لم يفعلهم غيرهم"<sup>٢</sup>. وقد بلغ عدد الاسرى الذين اسروهم في وقعة اللاذقية هذه سبعة الاف اسير ما بين رجل وامرأة وصبي<sup>٣</sup>. ويتابع ابن الاثير روايته في ذلك فيقول "وغم عسكر الاتابك مائة الف رأس من الدواب وما سوى ذلك من الاقمشة والحلى"<sup>٤</sup>. وقد ضربوا اللاذقية عندما ارادوا العودة لبلادهم كي لا يكون للاعداء فيها ملجأ<sup>٥</sup>.

## ٢٠٠. حصار زنكي مدينة حمص ٥٣١ هـ = ١١٣٦ م

لقد اتينا فيما مضى على حصار زنكي لهذه المدينة عام ٥٢٣ هـ = ١١٢٦ م ولا بد لنا الان ان نعيد البحث في حصار زنكي لهذه المدينة للمرة الثانية وذلك في منتصف سنة ٥٣١ هـ = ١١٣٦ م وقد ذكر ابن الاثير في كامله هذه الرواية بأسهاب، ونحن نكتفي هنا بالإشارة إليها مع بعض التفصيل.

لما كان شهر شعبان عام ٥٣١ هـ جيش زنكي جيشه وتأهب للرحيل الى حمص<sup>٦</sup>. وقبل سيره اليها ارسل كمقدمة لسميته حاجبه صالح الدين محمد الباغسياني<sup>٧</sup> في مهمة خاصة يرمي من ورائها ان يدبر امر استلام المدينة عن طريق التسليم والصلح، وكان صلاح الدين هذا ممن لا تعوزهم الحيلة والحكمة السياسية، وقد وصفه ابن الاثير في كتابه الكامل بقوله "وكان ذا مكر وحيل"<sup>٨</sup>. وصل هذا الرسول مدينة حمص واتصل فيها بأمرها (معين الدين انر) من اكابر امراء دمشق وحمص على السواء، ولكن يظهر ان سياسته قد فشلت وذلك انه اخفق في مهمته فسارت حينئذ جيوش زنكي تريد الاستيلاء على حمص قهراً ودرب البطل المغوار حصاره على المدينة، ولكنه لم يلبث حتى شعر بقوة المدينة فأراد ان ينفذ آخر سبيل في كئنته فارسل رسلاً ثانية الى معين الدين انر يفاوضونه في امر تسليمها ويتحدثون

١ ابن الاثير ١٦: ١١، ابن الوردي ٤٠: ٢. ٢ ابن الاثير ١٦: ١١  
٣ ابن الاثير ١٦: ١١ ٤ ابن الاثير ١٦: ١١ ٥ ابن الاثير ١٦: ١١  
٦ ابن القلانسي ٢٥٨ ٧ ابن الاثير ٢١: ١١  
٨ ابن الاثير ٢١: ١١

بالوعد والوعيد ، ولكن انراى الا ان يقف من المهاجمين موقف المدافع واحتج في ذلك " بانها ملك صاحبه شهاب الدين وانها بيده امانة ولا يسلمها الا عن غلبة" <sup>١٠</sup> وصمد فعلا ضد غارات عماد الدين وهجمات حتى اعيأ امره الجيتر المحاصر، فحدثت عماد الدين نفسه بالرحيل لا سيما وان الاخبار بلغته بان الافرنج قد ساروا لنجدة حمص، فازمع زنكي تجاه ذلك على الرحيل لمقاتلة هؤلاء الفرنج واضطر لرفع الحصار عن حمص ردحا من الزمن دون ان يبلغ وعده منها ، وسار في شوال سنة ٥٣١ هـ يريد منازلة الفرنج في حصن بعرين <sup>٢</sup>.

٢١٠ . ملك زنكي قلعة بعرين ٥٣١ هـ = ١١٣٧ م

ولئن شاءت الاقدار ان تخيب امل زنكي في حمص فلم تشأ ان تعاكسه في بعرين ، بل كان التوفيق حليفه في حملته هذه وقد زاده فتح هذا الحصن من الشهرة فوق ما كان له ، فصار صيته في الامصار وطبق اسم الافاق . سار زنكي في شوال من عام ٥٣١ هـ يريد منازلة الفرنج في حصن بعرين الذي هو على ما تذكره المصادر من امسح حصون الفرنج القريبة من مدينتي حلب وحماء <sup>٤</sup> والمصادر متفقة على ان استيلاء عماد الدين زنكي على حصن بعرين كان في غضون عام ٥٣١ هـ = ١١٣٧ م <sup>٥</sup>.

سار زنكي كما اسلفنا يريد مقاتلة الفرنج وكانوا على اغبة المسير الى حمص للنجدة . فتلاقى الفريقان بالقرب من حصن بارين المسمى اليوم ببعرين لمولك الموصل (١٠٥) ، وكان الفرنج قد جاءوا فرسانا ومشاة لعدد غارات المسلمين <sup>٦</sup> . ولما رأى زنكي قوة اعدائه شعر بخطورة الموقف وجمع عساكره واخذ يحثهم على الجهاد ويحرضهم على قتال الكفرة الاوغاد <sup>٧</sup> ونظمهم ورتبهم ثم امرهم بالهجوم ، فهاجموا بشدة وعنف واعملوا السيف في رقاب الاعداء " ولم يزل هذا دأبهم حتى حمي الوطيس

- 
- ١٠ ابن الاثير ٢١: ١١ ، ابن القلانسي ٢٥٨  
 ٢١٠ ابن الاثير ٢١: ١١ ٠٤ ابن الاثير ٢١: ١١ ، ابن القلانسي ٢٥٩ ، ستيفنسن ٢٥٩  
 ٥٥ ابن الاثير ٢١: ١١ ، ابو الفداء ١٢: ٣ ، ابن الغزى ٨٩  
 الحريرى ٥٤ ، منقربور ١٨٣ ، ابن القلانسي ٢٥٩ ، كرد علي ١٠: ٢ ، باركر ٣٥  
 ستيفنسن ١٣٧ ، الموسوعة ٤: ١٢٢٥ ٠٦ ابن الاثير ٢١: ١١ ، ملوك الموصل ١٠٥ ، ابو الفداء ١٢: ٣ ٠٧ ملوك الموصل ٩١ .

فحينئذ حملت الفرنج حملة اختلط فيها المرويس وأرئيس، وارتفع القتال، واشتد  
اللزام، وعظم الزحام، وصبر الفريقان صبرا لم يسمع بمثله في سالف الدهور، إلا ما  
يحكى عن ليلة التبرير<sup>١٠</sup>. ولم يدم الأمر عويلا حتى تسرب الضعف والوهن إلى  
قلوب الفرنج فلم يروا بدا من الحرب ففرّوا مسرعين والمسلمون يشاردونهم بالرمح  
والنبال، فالتجأوا إلى حصن بعين لعله ينجيهم من قسوة الأعداء، ودخلوا الحصن  
الوفا واحتموا به وظل زكي يشاردهم حتى خضع بعين وحاصره وحاول اقتحامه،  
ويظهر أن هذا الحصن كان من أمنع الحصون وأحسنها، وصفه جميع المؤرخين  
بالمناعة، وقد أجاد صاحب كتاب ملوك الموصل في وصف هذا الحصن وترك لذياله  
الحنان فانتقل عن لسانه في ذلك شعر منشور. يقول ابن الأثير في كتابه ملوك  
الموصل بعد أن يصف حصار عماد الدين زكي لحصن بعين "فحين نازله خاف به  
وقابله، فرأى حصنا معلقا في الهواء، مقارنا هامة الجوزاء، قد فاق الجبال الراسيات  
وجازها سموا، وقد تشعب بانفه عن أن يرام، وناء بجانبه عن أن يظام، فلا ترمقه  
الأبصار إلا عادت حيرة، ولا تؤمّه الطيور إلا اضحت اجنحتها مهيضة كبيرة، ومن  
به من ملو. الفرنج وفرسانهم، وكنولهم وشيائهم، واثقين بحضائنه، متيقنين أن الحوادث  
لا تنالهم وهم به معتمدون، وأن الأيام لا تنفذ سهامها فيهم وهم فيه يقومون،  
وأنى يكون ذلك، وقد احدث بهم الأسد في عرينها، الذابة عن دين الله  
تعالى ودينها<sup>٢٠</sup>.

استمر عماد الدين زكي ورجاله في حصار الحصن يعصرون من فيه  
بوابل من السهام، وسجار المنجنيق، حتى ادخل في قلوبهم الرعدة والذعر ولم  
يجدوا إلى التخلص من نار الأعداء سبيلا إلا بالاستسلام وطلب الأمان حقنا لدمائهم  
وراسلوا زكي في ذلك ولكنه أبى إلا أن يستمر في قتالهم إلى النهاية وأن يدخل  
الحصن قرا وتهدرا. وفيما شو يتابع قتاله إذ بلغه أن بحصر الذين نجوا من القتال  
قد ابحروا إلى بلاد الفرنج يستجدونهم، فكان ذلك حافزا له على تشديده في  
امر الحصار وتضييقه على ساكنيه وهم لا يزالون يرسلون إليه الرسول تلو الرسول  
يسترحمون أيقاف القتال ويعدون بالاستسلام، فأجابهم أخيرا إلى ذلك وتسلم الحصن  
و (٥٠ ألف دينار) بعد ما أعطى الناس الأمان<sup>٣٠</sup>.

١٠٧ ملوك الموصل ١٠٢ ملوك الموصل ١٠٦ - ١١٠

٢٠ ابن القلانسي ٢٥٩، ابن الأثير ١١: ٢١، أبو الفداء ٣: ١٢، منقريوس ١٨٣  
كرد علي ١٠: ٢



وبذلك قُبر زنكي على ناصية شجر من أهم شجور الروم في البلاد الشامية الشمالية، وجمع من اخترع حدود الفرنج على سلامة الدولة الإسلامية . يظهر أن استيلاء المسلمين على حصن بعين قد زاد زنكي حيوية ونشاطاً ، إذ تذكر المصادر أنه في أثناء حصاره الحصن الكبير ، سار جنداً إلى المعرة وكفرطاب واستولى عليهما<sup>١</sup> ، وأعاد فيهما إلى الناس أملاكهم التي كان قد سلبها الفرنج من قبله<sup>٢</sup>.

٢٢٠ ملك زنكي حمص سنة ٥٣٢ هـ = ١١٣٨ م

واستتب لزنكي الأمر رداً من الزمن وطأت البلاد إلى القرار والاعثمان ومضت بعد ذلك الأيام دون أن يحدث فيها حادث هام يستحق انتباه التاريخ والمؤرخين ، وانصرف عماد الدين زنكي إلى إقرار حياته الداخلية وتنشيط دعائه في البلاد التي فتحها وأعاد الدعة للمستقبل ، حتى بلغ فجر عام ٥٣٢ هـ إذ وجد زنكي من نفسه سافراً للفتوح ومن قوته دافعاً للهجوم ، فجهز جيشه وأعدّه للرحيل إلى حيب الفتح والغنائم ، ونفق بور النفير في المسم من السنة المذكورة<sup>٣</sup> وسار على رأس جيش نحو حمص ، فمر في طريقه بحماه ثم عر في طريقه على بعلياً ، فملك حصن المجدل وكان لصاحب دمشق ، ولما سمع بذلك متحفظ بانياس ، وبانياس لصاحب دمشق أيضاً ، سار إلى مراسلته وتقديم الصاعقة إليه ثم سار زنكي قاصداً مدينة حمص حتى وصلها فحارب عليها الحصار واستمر يقاتل أهلها إلى أن بلغه أمر هجوم الروم على حلب فاضطر لأن يرفع الحصار عن حمص ويرحل عنها إلى (السلمية) حتى إذا انجلت سادثة الروم عاد إلى حمص فحارب عليها الحصار ونزلها وأرسل إلى شهاب الدين صاحب دمشق يطلب إليه ليتزوجها<sup>٤</sup> واسمها علي ما تذكره المصادر زمردخاتون ابنة جاولي<sup>٥</sup> ، وهي التي قتلت ابنها شمر الملوك ، ويظهر أن شهاب الدين نزل عند إرادة زنكي فسمح له بالزواج بامه ، فتزوجها زنكي في رمضان سنة ٥٣٢ هـ<sup>٦</sup> وخضعت له حمص وقلعتها . ولا تذكر المصادر بأسباب الأسباب التي

- ١ ابن الأثير ١١: ٢٢ ، أبو الفداء ٣: ١٢ ، ابن الوردي ٢: ٤١
- ٢ ابن الأثير ١١: ٢٢ ، كرد علي ٢: ١٠ ، أبو الفداء ٣: ١٢ ، ابن الوردي ٢: ٤٢
- ٣ كرد علي ٢: ١١ ، منقريوس ١٨٣ ، ابن الأثير ١١: ٢٣ ، أبو الفداء ٣: ١٢
- ٤ ابن القلانسي ٢٦٦ ، ابن الأثير ١١: ٢٣ ، أبو الفداء ٣: ١٢ ، ابن الوردي ٢: ٤١
- ٥ ابن الأثير ١١: ٢٣
- ٦ ٤١: ٢

حملت زنكي. على التزوج بام شهاب. الدين صاحب دمشق، ولعل اقرب الاقوال الى الصواب ما يذهب اليه ابن الاثير في كامله من ان الدافع الاول لهذا العمل هو امل زنكي في الاستيلاء على دمشق من وراء هذا الزواج لما تتمتع به زمره خاتون من النفوذ والسلطان<sup>١</sup>. ولكن زنكي لم يبلغ الغاية التي كان يستهدفها، بل خاب امله ولم يحصل على مدينة دمشق<sup>٢</sup>.

٢٣. زنكي وملك الروم ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ - ١١٣٨ م

لقد اثار استيلاء المسلمين على حصن بحرين حفيظة الروم واوقد النار في قلوبهم لانه افقدهم شغرا من اهم شغورهم ومركزا من اهم مراكزهم الحربية. فعمل ملك الروم على تجنيد رجاله للسير الى بلاد الشام، وتوسيع قدمه في ارضها واستعادة ما فقد منها. حتى اذا كانت غضون سنة ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ - ١١٣٨ م خرج الروم من القسطنطينية في عدد عديد وعدة عظيمة، ساروا جنوبا نحو الشام حتى وصلوا مدينة بزاعة، وهي على مرحلة من حلب فحاصروها وفتحوها بامان<sup>٣</sup> حتى اذا دخلوها اتوا عليها قتلا وسلبا وعاثوا فيها فسادا سجله التاريخ عليهم في صفحاته<sup>٤</sup>. ويقول ابن الاثير في كامله "وكان عدة من جرح فيها من اهلها خمسة الاف وثمانمائة نفس، وتنصر قاضيها وجماعة من اهلها نحو اربعمائة نفس"<sup>٥</sup>. ثم رحلوا الى حلب فلم يحصلوا على شيء، فرحلوا عنها الى قلعة الحارب، فحرب اهلها عنها فملكوها<sup>٦</sup>.

وبعد ان دانت لهم مدينة بزاعة والاثارب ساروا جنوبا الى قلعة شيزر وهي على ما تذكره المصادر "حصن منيع على مرحلة من حماه"<sup>٧</sup>. وتقول المصادر ان حصار الروم لهذه القلعة كان على اسرار انما ليست لعماد الدين زنكي، وانما هي للامير ابي العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن نحر بن منقذ الكناني<sup>٨</sup>.

- 
١. ابن الاثير ١١: ٢٣، منقريوس ١٨٣. ٢. ابن الاثير ١١: ٢٣، منقريوس ١٨٣.  
 ٣. ابن الاثير ١١: ٢٣، ملوك الموصل ٩٨. ٤. ابن الاثير ١١: ٢٣. ٥. ابن الاثير ١١: ٢٣.  
 ٦. ابن الاثير ١١: ٢٣. ٧. ملوك الموصل ٩٨.  
 الروضتين ٣٨، الحريري ٥٦. ٨. ابن الاثير ١١: ٢٣، ملوك الموصل ٩٨.  
 ابو الفداء ٣: ١٣، الروضتين ٣٢، منقريوس ١٨٤، ابن الوردي ٢: ٤٢.

فنصب الروم على المدينة المنجنيقات، ويذهب الرواة الى انها كانت ثمانية عشر منجنيقا<sup>١</sup> وشددوا الحصار على المدينة وضيقوا على اهلها، فاضطر هؤلاء لاجالة الطرف باحثين عن قوة تنجدهم، فلم يجدوا اقوى من عماد الدين زنكي، فأرسلوا اليه الرسل يستجدونه، فسار اليهم ونزل على نهر العاصي، كما يذكر ذلك ابن الاثير في كتابه الكامل<sup>٢</sup>.

ولما وصل عماد الدين القلعة بعث الى ملك الروم بطلب يذكره ابن الاثير<sup>٣</sup>، ومؤداه على لسان صاحب الكامل<sup>٤</sup> انكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال فانزلوها الى الصحراء حتى نلتقي فان ظفرت بكم ارحمت المسلمين منكم وان ظفرتم استرحتم واخذتم شيزر وغيرها<sup>٥</sup>. ولكن ملك الروم لم يأبه بكلام زنكي، بل ظل مثابرا على حصاره، فعمد زنكي آنئذ الى الحيلة، وزنكي ممن يحسنون الحيل والخدع فأرسل لملك الروم يوهمه بان اهل الشام منشقين عليه وليسوا معه، وفي الوقت نفسه ارسل الى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم<sup>٦</sup>. ويظهر ان سياسة زنكي هذه قد اتت أكلها، فرحل ملك الروم عن شيزر بعد ان صونع بمال<sup>٧</sup> في رمضان بعد ان اقام عليها (٤٠ يوما)<sup>٨</sup>، تاركا آلات الحصار من منجنيقات وغيرها<sup>٩</sup>. فسار اليها عماد الدين زنكي<sup>١٠</sup> وظفر بجميع ما تركوا ورفع الى قلعة حلب<sup>١١</sup> وبذلك خلص زنكي الحصن من الروم<sup>١٢</sup>، فانطلق بذلك لسان الشعراء في مدح عماد الدين زنكي وتعداد مناقبه<sup>١٣</sup>. قال المسلم بن الخضر بن قيم الحموي:

بعزمك ايها الملك العظيم      تذلل لك الصعاب وتستقيم  
الم تر ان كلب الروم لسا      تبين انه الملك الرحيم  
فجاء فطبق الفلوات خيلا      كأن الجحفل الليل البهيم<sup>١٤</sup>

١. ابوالفداء ٣: ١٣، ابن الوردي ٢: ٤٢، منقريوس ٢٨٤      ٢. ابن الاثير ١١: ٢٣  
٣. ابن الاثير ١١: ٢٣      ٤. ابن الاثير ١١: ٢٣، ملوك الموصل ١٠٢  
الروستين ٣٢، كرد علي ٢: ١٢      ٥. ابن الاثير ١١: ٢٣، الروستين ٣٢، ستيفنسن ١٤١  
٦. ابن الاثير ١١: ٢٣      ٧. ملوك الموصل ١٠٢      ٨. اسامة بن منقذ ٣، ابن  
الاثير ١١: ٢٣، ابوالفداء ٣: ١٣، ابن الوردي ٢: ٤٢  
٩. ابن الاثير ملوك الموصل ١٠٢      ١٠. ابن الاثير ملوك الموصل ١٠٢  
ابن القلانسي ٢٦٤، ستيفنسن ١٤١      ١١. ابن الاثير ١١: ٢٤

وبعد ان تم لزني ملك شيزر سار عنها جنوبا الى حصن عرقه ، وهو من اعمال طرابلس ، فالقى عليه الحصار ولم يزل به حتى فتحه عنوة ، ولم يمتلك نفسه عن نيبه وسلبه وتخريره واسر من به من الذرنج مقابل ما قام به ملك الروم قبل ذلك في شيزر من نهب وسلب .<sup>١</sup>

٢٤٠ . ملك زني بعليك ٥٣٣ هـ = ١١٣٩ م

سرنا مع زني في حروبه في الشام واستيلائه على حصن بعين ثم على حمص ، ووقفنا عند جهاده مع ملك الروم وفتح مدينة بزاعة وقلعة شيزر واخضاعه حصن عرقه . ولا بد لنا ونحن نؤرخ سيرته من ان نتابع احداثه بكاملها ، واذا نحن راجعنا المصادر التاريخية وجدناها لا تقف عند ذكر جهاده مع الروم ، بل تتابع ذلك الى ذكر باقي سيرته المليئة بالاحداث . ولعل اشهر ما تذكره عن عماد الدين بعد حروبه مع الروم ، ملكه مدينة بعليك في ذي القعدة من سنة ٥٣٣ هـ ، اغسطس سنة ١١٣٩ م ، باجماع المصادر التاريخية التي بين ايدينا<sup>٢</sup> وسبب مسيره الى بعليك انه لما قتل محمود صاحب دمشق بلغ خبر نعيه اسماع والدته زمر خاتون زوج عماد الدين زني وهي في حلب ، فأكلم ذلك قلبها وعرضها الى اشد نوازل الحزن والاسى<sup>٣</sup> ، وكان مما يزيد في المها واساها انه قتل غدرا . لذلك لم تأل جهدا في الاخذ بثأره ، فأرسلت الى زوجها عماد الدين وهو يومئذ بديار الجزيرة<sup>٤</sup> تخبره الخبر وتحرضه بحرارة على قصد دمشق والانتقام لولدها من اولئك الذين غدروا به ظلما وعدوانا . فما ان بلغت الرسالة بعليها<sup>٥</sup> ، عماد الدين زني ، حتى بادى في الحال الى تلبية طلبها ، وكيف لا ينزل زني عند ارادتها من السير الى الشام ، وهو الذي يجلم في هذه الامنية منذ امد بعيد . سار زني الى دمشق مستبشرا وكله امل ان الوقت قد حان لاستيلائه عليها . ولكن اخبار مسيره وصلت دمشق قبل ان يصل اليها جيشه فاحتاط من بها واستعدوا<sup>٦</sup> واستكثروا من الذخائر ولم يتركوا شيئا مما يحتاجون اليه الا وبذلوا الجهد في تحصيله<sup>٧</sup> . واقاموا ينظرون ورود

١ . ملوك الموصل ١٠٢ ٢ . ابن الاثير ١١ : ٢٨ ، ابو الفداء ٣ : ١٤ ، ابن الوردي

٢ : ٤٣ ، ستيفنسن ١٤٤ ، الموسوعة ٤ : ١١٢٥ ٣ . ابن الاثير ١١ : ٢٨

٤ . ابن الاثير ١١ : ٢٨ ٥ . ابن الاثير ١١ : ٢٨ ٦ . ابن الاثير ١١ : ٢٨

اليهم ليقاوموه اشد المقاومة . وفي هذه الاثناء بينما كانت دمشق تستعد لاستقبال عماد الدين زنكي بالحرب ، كان زنكي من قبله يرسل معين الدين انر صاحب بعلبك ووزير دمشق ، يبذل له البذول العظيمة ، طالباً منه تسليم دمشق<sup>١</sup> ، فلم يأبه معين الدين لمواعيد زنكي ولم يرد عليه ، مما اضطر زنكي ان يعرض عن خطته في حصار دمشق مؤقتاً ، ويسير الى بعلبك ينزل بصاحبها ضربته القاضية . وسار فعلاً اليها ، فوصلها في العشرين من ذي الحجة سنة ٥٣٣ هـ ، ونازلها بعساكره ، وجد في محاربتها ، ونصب عليها من المنجنيقات اربعة عشر منجنيقاً<sup>٢</sup> ، ولم يزل يضيق عليها الخناق حتى اوشك اهلها على الهلاك ، فلم يجدوا بداً من مراسلته وطلب الامان ، فأجابهم الى مطالبهم وتسلم المدينة<sup>٣</sup> . الا ان قلعتها لم تنزل في ايدي سرزمه قليلة من اهل بعلبك ، ممن ابوا التسليم والخضوع<sup>٤</sup> ، فقاتلهم زنكي اشد القتال حتى تسرب اليأس والجزع الى قلوبهم ، فاضطروا لطلب الامان والتسليم والاذعان ، فأمنهم وتسلم القلعة<sup>٥</sup> ، حتى اذا ما نزلوا منها غدر بهم ، وامر بصلبهم ، فصلبوا<sup>٦</sup> ، ويضيف الى ذلك ستيفنسن قائلاً \* ان عماد الدين زنكي افسم بالقرآن الكريم ، وبطلاق ازواجه بحفظ ارواح من في القلعة ، ولكنه احنث ، فطرد الحاكم وشق ٢٧ رجلاً من اتباعه\* ستيفنسن ١٤٤ . فكان لعماد الدين هذا اسوأ الاثر في نفوس اهل دمشق ، مما زادهم حنفاً عليه ، ونشاطاً في مقاتلته . وبعد ان دانت له بعلبك بأسرها ، ولق عليها نجم الدين ايوب والد البطل صلاح الدين الايوبي<sup>٧</sup> .

٢٥٠ زنكي يضرب الحصار على دمشق ، ربيع الأول ٥٣٤ هـ = ١١٤٠ م

بعد ان فرغ زنكي من امر بعلبك ، وقرر قواعد الحصار ، واصل حالها ، سار الى دمشق هدفه الاسمي ، فنزل بامر البقاع ، وارسل الى جمال الدين محمد بن بوري بن طائكين صاحبها<sup>٨</sup> ، يخبره بالامر ، ويقترح عليه ان يسلم اليه دمشق مقابل

- 
- ١ ابن الاثير ٢٩ : ١١ ، ابن الاثير ٢١ : ١١ ، ابن الوردي ٤٣ : ٢  
 ٢ ابن الاثير ٢٩ : ١١ ، ابوالفداء ١٤ : ٣ ، الحنبلي ١٢٨ : ٤ ، القرطبي ٢٧١ ،  
 ستيفنسن ١٤٤ ، ابن الاثير ٢٨ : ١١ ، ابوالفداء ١٤ : ٣  
 ٣ ابن الاثير ٢٩ : ١١ ، ابوالفداء ١٤ : ٣ ، الموسوعة ١٢٢٥ : ٤ ، ابن الاثير ٠٦  
 ٤ ابن الاثير ٢٩ : ١١ ، ابوالفداء ١٤ : ٣ ، ابن الوردي ٤٣ : ٢ ، ملوك الموصل ١٠٥  
 ٥ ابن الاثير ٣ : ١١ ، ملوك الموصل ١٠٣ ، ابوالفداء ١٥ : ٣ ، ابن القلانسي ٢٧٠ ،  
 ستيفنسن ١٤٣ ، الموسوعة ١٢٢٥ : ٤

بلد آخر يهبه زنكي اليه ، فلم يجبه جمال الدين الى ذلك<sup>١</sup> . فلم ير زنكي بدا  
من السير الى دمشق ومحاربة اهلها وفتحها عنوة . فسار اليها ونزل داريا<sup>٢</sup> ،  
ثلاث عشر يوما خلت من ربيع الاول عام ٥٣٤ هـ<sup>٣</sup> فالتقت طلائع جيشه بطلائع  
جيش دمشق ، فاقتلوا ، وكان الظفر فيها لعسكر زنكي ، فعاد الدمشقيون منهزمين  
بعد ان قتل اكثرهم<sup>٤</sup> . فلحق بهم زنكي الى ان وصل ابواب دمشق فتصدى له  
جيش الاعداء وقاتلوه وقاوموه ، وتصارع الفريقان ردحا من الزمن كان يتبادل فيها ضرب  
السيف ووخز الحراب ، حتى انتهى الامر بانهزام الدمشقيين ، واشرفت مدينة دمشق  
على الهلال والاستسلام<sup>٥</sup> ، ولكن زنكي امسك عنها مدة عشرة ايام<sup>٦</sup> ، وتابع رسله الى  
صاحبها يبذل له حمص وعلبك وغيرها مما يختاره من البلاد مقابل ان يتخلى له  
عن دمشق<sup>٧</sup> ، فقال جمال الدين الى التسليم<sup>٨</sup> ، ولكن عارض في ذلك اصحابه وآثروا  
المقاومة والحرب الى النهاية ، فعاد القتال والزحف الى اشدده . وقد حدثت في  
هذه الاثناء ان مرز جمال الدين محمد صاحب دمشق ومات ثمان ايام خلت من  
شعبان سنة ٥٣٤ هـ<sup>٩</sup> فولى الملك بعده ابنه بجير الدين ابق<sup>١٠</sup> ، وقام معين الدين  
انر في ترتيب دولته ، فزاد كل ذلك في طمع عماد الدين زنكي ، ودفعه لان يضرب  
المدينة بشدة وعنف ، ولم يزل كذلك حتى اضطر انر الى الاستنجاد بالفرنج<sup>١١</sup> .  
واستدعاهم الى نصرته ، ودفع زنكي عن دمشق ، وبذل لهم في ذلك الاموال ، ووعدهم  
ببانياس بعد انتزاعها من يد واليها ابراهيم بن طرخت<sup>١٢</sup> ، واخذ يخوفهم من عماد  
الدين زنكي ان هو ملك دمشق<sup>١٣</sup> . ويظهر ان الفرنج اقتنعوا بما قاله معين الدين  
انر<sup>١٤</sup> ، فقرروا نجدة دمشق ، وتأهبوا للرحيل اليها ، حتى اذا علم زنكي بذلك سار  
الى حوران خامس رمضان من سنة ٥٣٤ هـ وتذكر المصادر انه كان عازما على قتال  
الفرنج قبل ان يلتقوا بالدمشقيين<sup>١٥</sup> . فلما علم الفرنج بخبره لم يفارقوا بلادهم<sup>١٥</sup>

- 
١. ابن الاثير ١١ : ٣٠ . ٢. ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابن القلانسي ٢٧٠ ، ستيفنسن ١٤٣  
٣. ابن الاثير ١١ : ٣١ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، ابن الوردي ٢ : ٤٣ ، الخريزي ٥٧ ، ابن  
القلانسي ٢٧٠ ، ستيفنسن ١٤٤ ، الموسوعة ٤ : ٢٢٥ . ٤. ابن الاثير ١١ : ٣٠  
٥. ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابن القلانسي ٢٧١ . ٦. ابن الاثير ١١ : ٣٠ . ٧. ابن الاثير  
١١ : ٣٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، الموسوعة ٤ : ٢٢٥ . ٨. ابن الاثير ١١ : ٣٠  
٩. ملوك الموصل ١٠٣ ، ابن الاثير ١١ : ٣١ ، ستيفنسن ١٤٤ ، الموسوعة ٤ : ٢٢٥  
١٠. ملوك الموصل ١٠٣ ، ابن الاثير ١١ : ٣١ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، ابن الوردي ٢ : ٤٣  
١١. ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ستيفنسن ١٤٥ . ١٢. ابن القلانسي ٢٧٢ . ١٣. ابن الاثير ١١ : ٣٠  
١٤. ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ستيفنسن ١٤٥ . ١٥. كرد علي ١٢ : ١٣ - ١٢

فعاد زنكي الى حصار دمشق ونزل بعذرا<sup>١</sup>، في اليوم السادس من شهر شوال سنة ٥٣٤ هـ . وتذكر المصادر عنه انه احرق عدة قرى في المرح والغوطة<sup>٢</sup> . ثم انه لما رأى من صمود دمشق ما رأى، وسمع من نصرة الفرنج لاهل دمشق ما سمع، رحل عائدا الى بلاده<sup>٣</sup> . ولم يلب ان ترك بلاد الشام، حتى وصل الفرنج مدينة دمشق، واتصلوا بصاحبها واهلها .

وبعد ان اقام الفرنج بدمشق قليلا، سار معين الدين انر الى بانياس وفاء بوعده للفرنج<sup>٤</sup> . وكانت بانياس يومئذ في عاعة عماد الدين زنكي، موليا عليها من قبله ابراهيم طرخت الذي مر ذكره الان<sup>٥</sup>، فحارب عليها الحصار، ولم يزل الفريقان يتقاتلان حتى استطاع معين الدين انر بمساعدة من معه من جند الفرنج، من الاستيلاء على مدينة بانياس، وتسليمها الى الفرنج بناء على ما كان قد قصده على نفسه من اليهود<sup>٦</sup> .

انتشرت الاخبار ان الفرنج قد استولوا على مدينة بانياس بموآمرة دبرها معين الدين انر، وان عسكر عماد الدين فيها قد انهزم وتشتت، وبلغت الاخبار تلك فيمن بلغت اليه اسماع عماد الدين زنكي، صاحب بانياس، فثار غضبا، من عمل معين الدين انر خصوصا، وازمع على الرجيل اليه، ومقاتلته حتى النهاية .

جمع عماد الدين فلوله، واعد لذلك جيشا جبارا، ورزعه على اعمال دمشق<sup>٧</sup>، فسارت فرقة من جيشه الى حوران، وسار هو على رأس معظم جيشه الى دمشق ونازلها سحرا<sup>٨</sup> وضرب عليها الحصار ثانية، حتى اذا ادبح الصباح علم اهل دمشق بالخبر وابتعدوا من الخضر المحقق بهم، فغزيت ابواق الجهاد، ونودي بالنفير العام، فاجتمع العسكر على السور، وفتحت الابواب، والتحم الجيشان في ملحمة عنيفة، اسفرت عن تراجع الجيش الاتاكي<sup>٩</sup> لما حل به من فتك الاعداء، فرحل عماد الدين الى مرج راهط<sup>١٠</sup>، حيث اقام خيامه، منتظرا عودة فلول جيشه المغلوب على

- 
- ١ ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، الحريري ٥٧ ٢ ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، الحريري ٥٧ ٣ ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، الحريري ٥٧ ٤ ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، الحريري ٥٧ ٥ ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، الحريري ٥٧ ٦ ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، الحريري ٥٧ ٧ ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، الحريري ٥٧ ٨ ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، الحريري ٥٧ ٩ ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، الحريري ٥٧ ١٠ ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، الحريري ٥٧

امره ، والمخدول في خيمته ، حتى اذا عاد اليه ، وقد ملئت ايدي افراده بالخنائم لانهم "طرقوا البلاد واملأوها غافلون" ،<sup>١</sup> رحل بهم عائدا الى بلاده صغر اليدين .

وهكذا نلاحظ ان قوة زنكي وان كانت تثبت امام البلاد الشامية ، وتفتح الحصون والشعور ، الا اننا نتفقد مكتوبة الايدي امام دمشق لا تبدى حراكا .  
فمرتان في هذه السنة ، سنة ٥٣٤ هـ = ١١٤٠ م<sup>٢</sup> يحاول عماد الدين زنكي الاستيلاء على دمشق وتخيب آماله الظروف ، ومرتان يلقي عليها حذاره ويعود منها خائبا محسورا ، منيا نفسه انه في مناسبة اخرى سوف يمد اليها يده وسلحانه ، وقد بقي زنكي طول حياته وهو يأمل هذا الامل ، ويحلم هذا الحلم ، ولكن عبثا يحاول زنكي ، ان وقت الاقدار بوجهه ، وردته عن تحقيق مبتغاه .

#### ٢٦ . ملك عماد الدين زنكي قلعة شهرزور ٥٣٤ هـ = ١١٤٠ م

عاد عماد الدين زنكي من دمشق بعد ان حاصرها الحصار الثاني خائبا ، معللا نفسه بالعودة اليها في يوم آخر وهو اكثر عددا واغوى عدة ، ووجه انظاره موقتا عنها الى غيرها مما هو اضعف منها مناعة ، واقترب الى الاستيلاء ، فأجال نظره حوله ، فلم يجد اقرب من قلعة شهرزور الحصينة ، فاستعد لمنازلتها ، وجمع فلوله لحصارها . وكانت شهرزور واعمالها وما يجاورها من البلاد والحيال بيد قفجاق بن ارسلان تاش التركماني<sup>٣</sup> ، وكان ذا سلطان عظيم ، وكلمة نافذة لدى اتباعه التركمان قاصبيهم ودانيهم<sup>٤</sup> . ومما زاد في نفوذه ، ان احدا من الملوك لم يجراً على التعرض له<sup>٥</sup> لما كانت تتمتع به هذه القلعة من الحصانة والمنعة . فحدث عماد الدين نفسه ان يتعرّف لهذا الحصن وصاحبه ، ويستولي عليه ، لينعم بموقعه الحصين ، ويقضي على سلطان صاحبه الكبير ، ومن غير عماد الدين زنكي ، ملك الامراء كما يسميه صاحب كتاب الاعتبار<sup>٦</sup> ، يجروء على تحدى مثل هذا الحصن واميره ذي السلطان ،

١ . ابن الاثير ١١ : ٣١      ٢ . ابن الاثير ١١ : ٣٠ - ٣١

٣ . ملوك الموصل ١٢ ، ابن الاثير ١١ : ٣١ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، ابن الوردي ٢ : ٤٣

الروضتين ٢٣      ٤ . ابن الاثير ١١ : ٣١ ، ملوك الموصل ١٠٢ ، الروضتين ٢٣

٥ . ابن الاثير ١١ : ٣١



فازم زنكي على ذلك ، وجمع اصحابه يعرض لهم رأيه ، فحذروه من ذلك ، وأشاروا عليه بالانصراف عن ذلك لما لهذا الامير من الاعوان والاتباع " وانه ان ضيق عليه سلم الولاية الى السلطان مسعود<sup>١٠٠</sup> ولكن ، لم يكن ذلك مما يفت بساعد زنكي ، او يعرفه عن عزمه ، فسير الى القلعة سنة ٥٣٤ هـ عسكريا كثيرا كما تروى ذلك المصادر<sup>٢</sup> وما ان بلغ الامر قفجاق حتى جمع من التركمان من يقدر على حمل السلاح<sup>٣</sup> ، وكان لديه بذلك جمع كبير ، يصفه صاحب كتاب ملوك الموصل بقوله " واجتمع عنده من الكثرة ما سد بهم الفضاء<sup>٤٠٠</sup> "

تابع عسكر عماد الدين زنكي المسير الى القلعة حتى اذا وصلوها ، وقعت بين الفريقين معارك حامية الوصير ، دارت فيها السيوف ولعبت فيها الرماح ، كان وقعها على عسكر قفجاق عظيما ، حتى اذا جن الليل ، اسفرت المعارك عن هزيمة اهل القلعة وانكسارهم شر كسرة<sup>٥</sup> . ففروا منهزمين " لا يلوز اح على اخيه ، ولا ولد على والده<sup>٦</sup> . ولحق بهم عسكر زنكي يحاردهم ذات اليمين وذات الشمال ، حتى ابادهم ودخلوا القلعة ، ودانت لهم البلاد<sup>٧</sup> ، فاصلع الشهيد عماد الدين احوالها ، واحسن الى اهلها ، وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من غت التركمان وجورهم<sup>٨</sup> ، ودخل قفجاق في جيشهم ، وانخرط في عسكرهم " ولم يزل هو وبنوه في خدمة البيت على احسن قضية الى بعد سنة ستمائة بقليل وفارقوها<sup>٩٠٠</sup> "

٢٧٠ زنكي وسقمان سنة ٥٣٥ هـ = ١١٤١ م

مضت سنة ٥٣٤ هـ على ما مر معنا ، ودخلت سنة ٥٣٥ . ومن يلقي نظرة على المصادر التاريخية يجد ان اهم الحوادث المقرونة باسم عماد الدين زنكي في هذه السنة هي حادثة النزاع الذي حصل بين بطلنا اتابك وبين داود سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا ، ذلك النزاع الذي ادى الى حرب شديدة بين الفريقين

١٠١ ملوك الموصل ١٠٣ ٠٢ ابن الاثير ٣١: ١١ ، ملوك الموصل ١٠٢ ، ابو

الفداء ١٥: ٣ ، الروضتين ٣٣ ٠٣ ابن الاثير ٣١: ١١ ٠٤ ملوك الموصل ١٠٣

٠٥ ابن الاثير ٣١: ١١ ٠٦ ملوك الموصل ١٠٣ ٠٢ ابن الاثير ٣١: ١١

ملوك الموصل ١٠٣ ، ابو الفداء ١٥: ٣ ، ابن الوردي ٤٣: ٢ ، الروضتين ٣٣

٠٧ ملوك الموصل ١٠٣ ٠٨ ابن الاثير ٣١: ١١

انهزم على اثرها جيش داود وملك زنكي من بلاده قلعة بهمود . ثم يظهر انه ادركه الشتاء فعاد الى الموصل دون ان يجاوز ما اخضع من البلاد .<sup>١</sup> وقضى اتابك بنية هذه السنة في الموصل دون ان يقوم بشيء يذكر .

ثم دخلت السنة التي تليها وهي سنة ٥٣٦ هـ ، ويظهر انها كانت لعماد الدين سنة راحة وسكنية وهدوء ، لان المصادر لا تشير الى اقل حادث جرى لزنكي في هذه السنة ، مما يدل على انه ربما كان منصرفا فيها الى اقرار اموره الداخلية وتثبيت دعائمه وتنظيم ادارته وما يلها .

#### ٢٨ . عماد الدين زنكي والاكراذ الهكارية سنة ٥٣٧ هـ = ١١٤٢ - ١١٤٣ م

بقي زنكي بعد اخذائه داود سقمان واستيلائه على قلعة بهمود هادئا لا تسمع له صوتا حتى ادركته سنة ٥٣٧ هـ ان مل السكينة والراحة ، فأخذ يفتش عن حرب يرضي بها شهوة نفسه الجامحة ، فوجد في الاكراذ الهكارية ما يروى غليله من القتال . وكان هؤلاء على ما يقوله صاحب ملوك الموصل " قد اكثروا في الارض الفساد " .<sup>٢</sup> فجهز جيشا قاده بنفسه الى بلاد الهكارية ، وحاصر قلعة (أشب) الشبيرة وهي من اعظم حصونهم وامنعها " وبها اموالهم واشليهم " ،<sup>٣</sup> وضيق الحصار على من فيها ، وقطع عنهم الارزاق حتى اضطرهم الى التسليم ، فدخل المعدن واعمل في اءله السيف ، ثم امر بتخريبه وبناء القلعة المعروفة بالسمادية عوضا عنه . وقد سميت القلعة بالسمادية نسبة الى عماد الدين زنكي .

وبعد ان تم لزنكي فتح قلعة أشب وتخريبها ، طلب من صاحب (آمد) ان ينفصل عن صاحب الحصن ركن الدولة داود ، وأن يفتح معه كل علاقته ، وينتعي اليه ويخطب له ، فأجابته الى ذلك رهبة وجزئا وخار في عاقته .<sup>٤</sup>

#### ٢٩ . ملكه عانة ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م

وان فرغ زنكي من حروبه في الشرق مع الاكراذ بلغه ان مدينة عانة

---

١ . ابن الاثير ١١ : ٣٢ . ٢ . ملوك الموصل ١١٤

٣ . ابن الاثير ١١ : ٣٧ . ٤ . ملوك الموصل ١١٥

قد ثارت عليه وان اهلها شقوا عما الصاعقة واعلنوا ثورتهم عليه<sup>١</sup> ، فلم يكن منه  
الا ان أرسل جيوشه اليها وملكها وخضع اهلها واعادهم الى طاعته . وتختلف  
المصادر في تاريخ استيلاء زنكي على مدينة عانة ، فمن المؤرخين من يجعلها في  
سنة ٥٣٧ هـ . كصاحب الروضتين<sup>٢</sup> ، ومنهم من يجعل ذلك سنة ٥٣١ هـ كابن القلانسي<sup>٣</sup>  
ومنهم من يجعل ذلك في سنة ٥٣٨ هـ كصاحب ملوك الموصل<sup>٤</sup> ، وابي الفداء<sup>٥</sup> ،  
وابن الوردي<sup>٦</sup> ونحن اميل الى ان الحادث حدث سنة ٥٣٨ هـ ، وحجتنا في  
ذلك المفاضلة بين الرواة من ان ابن الاثير اقرب الى الاصلية من غيره من الرواة  
اذ هو اقدم المؤرخين الذين نرجع اليهم في ذكر سيرة عماد الدين ، اضاف الى  
ذلك ان ابن الاثير يستقى اكثر اخباره عن والده ، ووالده كان وزيرا لدى عماد  
الدين ، وكان عائشا في البلاط الاتابكي ، فهو من هذه الناحية افضل من سواء ، اذ  
يستند الى مرجع رسمي . ولعل الصواب يكون خلاف ذلك الا ان ما يتراءى لنا  
الان في هذه الحادثة ان نميل الى رواية ابن الاثير ، فنقول ان تاريخ استيلاء  
عماد الدين زنكي على مدينة عانة كان في سنة ٥٣٨ هـ .

٣٠ . توتر العلاقات بين زنكي ومسعود سنة ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م

كان السلطان مسعود لما افضت السلطنة اليه لا يزال الامراء  
والاكابر واصحاب الاطراف يخرجون عن طاعته ، وكان كلما انشق عليه اميدا وحدث حادث  
نسبه الى عماد الدين وظن انه هو الذي اشار به وسعى فيه لعلمه ان جماعة  
الامراء لا يخرجون عن رأى زنكي<sup>٧</sup> وارادته ، لما اتصف به من التعقل في الامور  
والاتزان في التدرف ، في الامور السياسية والحربية والادارية . ولعل السلطان مصيب  
في رأيه لان زنكي كان في الواقع يقيم بشتى انواع المناورات ، ويقود تلك الحركات  
والمؤامرات على السلطان ليشغله عن شأنه وفتوحه<sup>٨</sup> ، فلا يترك له مجالا للتدخل في  
شؤونه . وكان السلطان مسعود يتحين الفرص المناسبة ليحمل على زنكي ويضرب

١ . ابن القلانسي ٢٨٠ ٢ . الروضتين ٣٦ ٣ . ابن القلانسي ٢٨٠

٤ . ملوك الموصل ١١٨ ٥ . ابي الفداء ١٦ : ٣ ٦ . ابن الوردي ٤٤ : ٢

٧ . ملوك الموصل ١١٥ ، ابن الاثير ٣٨ : ١١ ٨ . ابن الاثير ٣٨ : ١١ ، ملوك

الموصل ١١٥

على يده . لو بث في سنة ٥٢٨ من رثته فرائدا ليقوم بإخراجه على زكي<sup>١</sup> .  
 حتى إذا انتفى سنة ٥٢٨ ، جمع السلطان مسعود وأصحاب البرص .  
 فبلغ الأسرا سماع زكي ، فأنزعه ذلك لأنه لم يجد في نفسه وجيشه ما يستطيع به  
 أن يقاوم سكر السلطان ، فغمر زكي في المؤقت يد - أ من الزمن ، ثم يترك أولى  
 من أن يرسل السلطان ويأمر إليه الدليخ وإيمان<sup>٢</sup> ، وتبوءت الرعايا بين  
 الزويتين زما وجاور ذلك زكي إلى رسل كان يبحث بنهم إلى السلطان يستأنفه  
 ويستجابه<sup>٣</sup> ، فأرسل إليه السلطان أبا عبد الله بن الأنباري<sup>٤</sup> ، ويسلر معه ثروا الدليخ  
 وهي : ٥

(١) أن يدفع صاحب الدين زكي مائة ألف دينار إلى السلطان مسعود

(٢) أن يعثر زكي نفسه في خدمة السلطان مسعود

ويشاور أن زكي قد نزل عند إرادة السلطان ونجح لأرواه دون  
 الشر الثاني إذا اعتذر من تلبيةه لأستماله بأمر الفرج<sup>٥</sup> ، فقبل السلطان ذلك منه .  
 مشروفا عليه فتح الرعايا . ولعل الدافع الرئيسي الذي حدا بالسلطان مسعود أن  
 يتساهل في ثروا الدليخ إلى هذا الحد ، وأن يقبل اعتذار زكي عن الحضور  
 لخدمته ما كان يحنين بلاد الموصل من الانتظار إذ قيل له<sup>٦</sup> أن ظلم البلاد  
 لا يقدر على حفاها من الفرج غير أنابك صاحب الدين فأنها قد وليها من قبله  
 مثل جاولي ، ومودوك ، وبيوشر بك ، والبرستي ، وشيرام ، من الأسراء وكان السلاطين  
 يمدونهم بالحسائر ولا يتقدرون على حفاها ولا يزا الفرج يأخذون منوا البلد  
 بحد البلد إلى أن وليها أتاك فلم يمدد أحد من السلاطين بخاير ولا يعال  
 ومع هذا فقد فتح من العدو عدة من ٨٠٠ ألف إلى ذلك أن السلطان مسعود  
 بالرغم من كل ما حدث له من زكي كان واثقا من إخلاصه له وذلك لأن الابن  
 الأكبر للشهيد المدعو بسيف الدين غازي كان في خدمة السلطان مسعود بأمر

١ ابن الأثير ٣٨ : ١١ ، ملوك الموصل ١١٥ ، أبو الفداء ٣ : ١٦ ، ابن الوردي ٢ : ٤٤

الروستين ٣٦ ٠٢ ملوك الموصل ١١٦ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥

٣ ابن الأثير ٣٨ : ١١ ٠٤ ابن الأثير ٣٨ : ١١ ٠٥ ابن الأثير ٣٨ : ١١

ملوك الموصل ١١٦ ، الروستين ٣٦ ٠٦ ملوك الموصل ١١٦ ، الروستين ٣٦

٧ ملوك الموصل ١١٦ ، ابن الأثير ٣٨ : ١١ ، الروستين ٣٦ ٠٨ ملوك الموصل ١١٦

والده<sup>١</sup>، وكان السلطان يحبه ويقربه ويعتمد عليه ويشتر به<sup>٢</sup>. وقد حدث ان ارسل اليه والده زنكي سرا يأمره بالوزير ومواناته بالموصل<sup>٣</sup>، وارسل في نفس الوقت الى نائبه في الموصل نصير الدين جتربأمره بنفسه من دنا الموصل ومن المسير اليه ايضا<sup>٤</sup>. فنزل سيد الدين عند ارادة والده ونزل السلطان مسجودا واتاه الى الموصل فمعه نائب والده فيضا من دناولها، فسأله ان يسمح له بالسير الى والده فأبى ذلك ايضا. فلما بلغ الرسالة عماد الدين ارسل الى ولده جوابا يلومه فيه على ما اقدم عليه من الخروج على امر السلطان، ويطلب منه ان يعود في الحال الى السلطان مسجودا ويدخل في خدمته وخالته<sup>٥</sup>، وارفق ابنه بريسور آخر من قبله يسلم الى السلطان مسجودا كتابا، مفاداه كما رواه صاحب ملوك الموصل "بلغني ان ولدك فاروق خدمتك بنفير اذن فلم اجتمع به وردته الى بابل"<sup>٦</sup>. فصار هذا عند السلطان مثل القبول والرضا، وكان من اكبر دواعي تساهل السلطان في امر والده مع زنكي.

٣١. زنكي في ديار بكر وماردين ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م

خلال هذه السنة وبعد ان تم السلاج بين عماد الدين زنكي وبين السلطان مسجودا، وعاد الأخير الى بلاده، سار زنكي الى ديار بكر فاستأمن فيها، فحاصر فيها عدة حصون وفتح عدة بلاد تذكر منها المادار مدينة (طنزة)<sup>٨</sup> و (السعرد)<sup>٩</sup>، ومدينة (المعدن)<sup>١٠</sup> من بلاد ارمينية، ومدينة (حيزان)<sup>١١</sup> و (الذوق)<sup>١٢</sup> (حسن فدليس)<sup>١٣</sup> و (سن باتيسة)<sup>١٤</sup> و (سن ذى القرنين)<sup>١٥</sup>.

ثم سار من ديار بكر بعد ان واد اتمامه فيها، الى ان جاز حدودها وبلغ ماردين فملك حصون (جملين)<sup>١٦</sup>، والموزر<sup>١٧</sup>، وتل موزر<sup>١٨</sup> ونظام ادارتها نازكا فيها من يحفظها ويقوم عليها<sup>١٩</sup>. ثم سار عنها الى مدينة آمد<sup>٢٠</sup> فحاصر اثم ملكها وبعد ما سار عنها الى مدينة ساني<sup>٢١</sup> فحاصرها وملكها ايضا بعد ان دناها.

١. ملوك الموصل ١١٢ ٢. ملوك الموصل ١١٢ ٣. ملوك الموصل ١١٢ ٤. ملوك الموصل ١١٢ ٥. ملوك الموصل ١١٢ ٦. ملوك الموصل ١١٢ ٧. ملوك الموصل ١١٢ ٨. ابن الاثير ١١: ٣٩ ٩. الفداء ١١٢: ٣، ابو الفداء ١١٦: ٣، ابن الوردي ٤٤: ٢ ١٠. ابن الاثير ١١: ٣٩، ابو الفداء ١١٦: ٣، ابن الوردي ٤٤: ٢ ١١. ابن الاثير ١١: ٣٩، ابو الفداء ١١٦: ٣ ١٢. ابن الاثير ١١: ٣٩ ١٣. ابن الاثير ١١٨: ١٤ ١٤. ابن الاثير ١١: ٣٩

٠٣٢ زنكي وفتح الرها ٥٣٩ هـ = ٢٥ كانون الاول ١١٤٤ م

لقد سرنا وزنكي في فتوحه البلدان وتدويخه الامار، وحداره القلاع وانخاضه المحزون . سرنا واياء من الغرب الى الشرق ومن الشمال الى الجنوب، ووقفنا واياء عند فتوحه في ديار بكر وماردين . ولم يكن زنكي ليكتفي بكل ما احابه من الفتن والنشائم، بل كان خياله دائما وابدا يتسع لآكثر من نفاقه، كان ينظر الى ابعد مما كان ينظر اليه القانع، لذلك لم تمن عليه سنة الا وضعت بأسبار فتوحه وحجاراته، بل قد لم يمتز عليه شهر الا وتعلوه المصادر بالحوادث .

ونجده الان في سنة ٥٣٩ هـ = ١١٤٤ - ١١٤٥ م يتناول على مدينة الرها، ومدينة الرها كما يعلم الكل تشغل مكانا ساميا في الهلال الخصيب، وكان لها نعيم وافر من الحركات الفكرية التي قادها البيزنطيون والسرمان في القرون الوسطى بالاضافة الى مركزها الحربي وسرمتها الدينية . كانت مركزا من اهم مراكز الاشعاع الفكري المسيحي، وبقيت لها مكانتها في الاسلام . يقول صاحب ملوك الموصل "والرها من اشرف المدن عند النصارى، واعظمها محلا، وهي احد الكراسي عندهم . فأشرفها البيت المقدس، ثم انطاكية ثم رومية، ثم القسطنطينية، فالرها ١٠ . كانت هذه المدينة في عهد زنكي تحت سلطة جوسلين صاحب رأى الفرنج والمقدم في عساكرهم، لما هو عليه من الشجاعة والمكر . وكان خصر الفرنج قد امتد الى ما بعدها من البلاد وكانت شرورهم لا تزال تتسع وفتنهم تشتد وتعظم وتحيط البلاد الاسلامية قاصديا ودانيها بغاراتهم وهجماتهم<sup>٣</sup>، وكانوا قد بلغوا شأوا يعيدا في البلاد الاسلامية، فمدوا ايديهم على آمد ونصيبين ورأس العين والرقبة . يقول صاحب الكامل "وكانت مملكتهم بهذه الديار من قريب ماردين الى الفرات مثل الرها، وسروج، والبيرة، وسن ابن عظمة، وجميلين، والموزر، والقراي<sup>٤</sup> ١٠ . وكان عماد الدين محيطا بكل ذلك، عالما بكل ما يدور في هذا القعر العربي، ولم يكن ليرضى

- 
- ٠١٥ ابن الاثير ٣٩: ١١، ابن الوردي ٤٤: ٢ ٠١٦ ابن الاثير ٣٩: ١١  
 ٠١٧ ملوك الموصل ١١٨، ٠١٨ ملوك الموصل ١١٨ ٠١٩ ملوك الموصل ١١٨  
 ٠٢٠ ملوك الموصل ١١٨ ٠٢١ ملوك الموصل ١١٨ ٠٢ ملوك الموصل ١١٨  
 ٠٢ ابن الاثير ٤٥: ١١، ابن خلكان ٢٧٢: ١، الروضتين ٣٦، الحريري ٥٨  
 ٠٣ ابن الاثير ٤٠: ١١، ملوك الموصل ١١٨-١٢٥، الروضتين ٣٦  
 ٠٤ ابن الاثير ٤٠: ١١

ان يعيث اهل الرها بمقدرات البلاد الاسلامية، ويعيشون بها فسادا، وكان زنكي يعلم الى جانب هذا انه اذا اعلن حصار الرها، وقاد جيوشه اليها، تر المجال الى الفرنج ليتجمعوا ويصدوا هجماته، فيتعذر عليه ملكها، لما هي عليه من الحصانة. لذلك اراد ان يفتحها عن غير هذا السبيل، عمد الى الحيلة والخذاع، ذهب الى ديار بكر واخذ يقارع اهليها وينازلهم ويقاتلهم ويحاصر حصونهم ليؤهم الفرنج انه ليست غايته الرها، وانما غايته ديار بكر<sup>١</sup>. فاحضن جوسلين الى ان جيوش زنكي انما هي منصرفة عنه الى شروب داخلية، وان زنكي لا يفكر في حرب الرها وحصارها. وعلى ذلك غارق جوسلين مدينة الرها قاصدا بلاد الشامية لتقرير اعمالها، راننا الى ان زنكي مشغول عنه بحرب اهل ديار بكر، وانه ليس لديه من فراغ الوقت ما يقدم به على حصار الرها<sup>٢</sup>.

جاءت عيون زنكي المنتشرة في الرها تخبره الخبر بسفر جوسلين وترهيه باغتنام الفرصة قبل فواتها، وكان زنكي بالمرصاد ينتظر مثل هذا الخبر، فنادى بالجند، فاجتمعوا، وتقدم اليه الامراء يتلقون اوامره<sup>٣</sup>. ويذكر ابن الاثير في كامله قصة تقع في هذا الموضع وهي انه عندما اجتمع الامراء الى زنكي امر بتهيئة الطعام، وقال لا يقرب المائدة الا من يضعن غدا معي بباب الرها، فلم يتقدم اليه غير امير واحد وصبي لا يعرف، لما كان لزنكي من الرعدة والخشوع في صدر رجاله. فقال الامير ما انت في هذا المقام؟ فقال زنكي دعه فوالله اني ارى وجهها لا يتخلف عني<sup>٤</sup>. وبعد ان استعد الجسر، وتوالت العدة، امر زنكي بالمسير فصار المسكر يتلو بعضها بعضا، زاحفين نحو الرها.

حارث اخبار الهجوم في البلاد وآفاقها، فسارع الفرنج فيها للتجمع والقتال، وصد غارة المسلمين عن البلد. ويذكر ابن الاثير في ملوك الموصل ان اتابك عماد الدين عند وصوله الى الرها، راسل اهليها، يبذل لهم الامان ليسلموه المدينة سلما دون ان يلجأ الى ضربها وتخريبها، فأبوا الا القتال. فحارب عليهم الحصار، وسلط عليهم المجانيق، وظل في حصارهم ثمانية وعشرين يوما<sup>٥</sup>، كان يرسل

١ ابن الاثير ١١: ٤٠، الروضتين ٣٧، الحريري ٥٨ ٢ ابن الاثير ١١: ٤٠، ابن القلانسي ٢٧٩، ستيفنسن ١٤٩ ٣ ابن الاثير ١١: ٤٠، ملوك الموصل ١١٨-١٢٥ الروضتين ٣٧، الحريري ٥٨ ٤ ابن الاثير ١١: ٤٠-٤١ ٥ ابن الاثير ١١: ٤٠ ملوك الموصل ١١٨-١٢٥، كرد علي ١٣: ٢

في خلالها النقاين ينقبون السور ليفتحوا فيه ثغرا ينسل منه الجنود الى المدينة<sup>١</sup> ويظهر ان عمل النقاين قد نجح ففتحوا عدة ثغر في السور والقوا منها النار ثم تبعهم الجنود ودخلوا المدينة عنوة وقهرا . كان ذلك في شهر جمادى الآخرة من سنة ٥٣٩ هـ ٢٥ كانون الاول سنة ١١٤٤ م حين القت المدينة سلاحها مستسلمة للقضاء الجائر، خاضعة لحكم البطل عماد الدين زنكي<sup>٢</sup>.

وتذكر المصادر ان زنكي فعل فيها ما يفعله الفاتحون في بلاد الأعداء من نهب وسلب وسبي<sup>٣</sup> "فنگس حلبانيا، واباد قسوسها وورهبانها، وقتل شجعانها، وماء الناس ايديهم من النهب"<sup>٤</sup> . ولكن يظهر ان أتاب ندم على ما قام به جنوده من النهب والسلب والتخريب في هذه المدينة الجميلة فأمر بأعادة ما سلبوه من الرجال والنساء والأطفال الى بيوتهم و"أعادة ما غنموه من أثاثهم وامتعتهم"<sup>٥</sup> . فردت الشنائم الى أهلها ولم ينقذ الا القليل<sup>٦</sup>، وطدت المدينة عامرة بعد خرابها وأعاد أهلها الى الاستقرار والأطمئنان بعد الاضطراب والهول والفرق<sup>٧</sup>.

وحمل زنكي بعد ذلك على اقرار الادارة الجديدة، وترتيب المعسكر والجنود لحفظ المدينة من غارات الفرنج<sup>٨</sup> . وبعد ان استقر الامر له فيها نبأها سار عنها الى ما كان بيد الفرنج من هذه الناحية من المدن والحدود والقرى، فاستولى على مدينة سروج<sup>٩</sup>، وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات .

ويظهر لنا من خلال المصادر انه كان لفتح الرها دور كبير في

الاصقاع وأثر عظيم في شخصية زنكي نفسه . فقد زاده هذا الفتح مقاما فوق مقامه، واجلالا فوق اجلاله . ملك اليه حب اتباعه، وسبر عليه فتح أعدائه . واستحق زنكي بعد هذا النصر المبين، وبعد هذا الفتح العظيم، لقب "بطل الاسلام" او لقب "الشهيد" . يقول ستيفنسن ما ترجمته "لقد عظمت منزلته بعد اخذه الرها، واستحق زنكي تقدير الناس، فرغبوا بتلقينه بالشهيد او بطل الاسلام"<sup>١٠</sup> . وهناك القيراني بقعدة منبها سحت قبة الاسلام فخرا بطوله ولم يك بسمو الدين لولا عماده<sup>٩</sup>

١٠١ ابن الاثير ٤٠: ١١، ملوك الموصل ١١٨-١٢٥، ابن القلانسي ٢٧٩، الحريري ٥٨-٥٩  
ستيفنسن ١٥٠ ٠٢ ابن الاثير ٤٠: ١١، ملوك الموصل ١١٨، ابن خلكان ١: ٢٧٢  
ابو الفداء ١٢: ٣، الروضتين ٣٦، كرد علي ١٣: ٢، ابن القلانسي ٢٧٩، باركر ٥١  
ستيفنسن ١٥١، الموسوعة ٤: ١٢٢٥



٠٣٣ حصار زنكي قلعة البيرة ٥٣٩ هـ = ١١٤٥ م

لما فرغ الشهيد من اخذ الرها ، واحلج حالها ، والاستيلاء على ما ورائها من البلاد ، سار الى قلعة البيرة ، هي حصن مثل على نهر الفرات ، خاضع لسلمان بنوسلين ملك الفرج<sup>١</sup> . ضرب زنكي حصاره على القلعة المذكورة ، وقطع عن أهلها الميرة ، وكان يتم له فتحها لولا ان جاءه نبأ مقتل نائبه ندير الدين جقر الموصل ، فاضطر لان يرحل عنها<sup>٢</sup> . فرحل وتقدمت بيوش حسام الدين تمرناش صاحب ماردين من القلعة ، فسلمها أهلها اليه خوفا من الشهيد ان يعود اليهم فيخضعوا قرا .

٠٣٤ مقتل ندير الدين جقر ٥٣٩ هـ = ١١٤٥ م

ولا نرى بأسا في هذه المناسبة من أن نذكر لمعا من نهر مقتل ندير الدين جقر نائب عماد الدين في الموصل ، لا لأهمية الخبر بحد ذاته ، ولكن لما له من العلاقة الوثيقة بالبطل الذي نحن بصدده ، ومن التأثير على سياسته وإدارته وفتوحاته . فقد رأينا انه على اثر بلوغه خبر نعي نائبه اضطر لان يرفع الحصار عن البيرة<sup>٣</sup> ويرحل عنها .

كان ذلك في ذي القعدة من سنة تسع وثلاثين بعد الخمسمائة<sup>٤</sup> حين طبق الافاق خبر مقتل ندير الدين بمؤامرة دبرها عليه الملك الب ارسلان<sup>٥</sup> ، المعروف بالخفاجي ، سببها ان اثار بعض اعوان الب ارسلان خفيظته على النائب المذكور ، وحسنوا له قتله لما يناله بعد ذلك من ملك الموصل وما اليها<sup>٦</sup> ، فلقي ذلك من الملك اذنا صاغية ، وارسل الى ندير الدين من يقتله ويرمي رأسه الى

- ٠٣ ابن الاثير ١١: ٤٠ ، ابن القلانسي ٢٨٠ ، ستيفنسن ١٥١ ٠٤ ملوك الموصل ١٢٥  
 ٠٥ ابن الاثير ١١: ٤٠ ٠٦ ابن الاثير ١١: ٤٠ ، ابن القلانسي ٢٨٠ ، الحريري ٥٩  
 ٠٧ ابن الاثير ١١: ٤٠ ، ستيفنسن ١٥١ ٠٨ ابن الاثير ١١: ٤٠ ، ابو الفداء ٣: ١٧  
 كرد علي ٢: ٥٣ ، ستيفنسن ١٥١ ٠٩ الروضتين ٤٩٩  
 ٠١ ابن الاثير ١١: ٤٠ ، الروضتين ٤٠ ٠٢ ابو الفداء ٣: ١٧ ، ابن القلانسي ٢٨٠ ،  
 الحريري ٥٩ ٠٣ ملوك الموصل ١٢٦ ، ابن الوردي ٢: ٤٥ ، الروضتين ٤٩٩  
 ٠٤ ملوك الموصل ١٢٦ ، ابن الوردي ٢: ٤٥ ٠٥ ملوك الموصل ١٢٦ ، ابو الفداء ٣: ١٧  
 ٠٦ ملوك الموصل ١٢٦ ، ابو الفداء ٣: ١٧

اصحابه . ولكن شيئا مما كان يؤمله الب ارسلان من نتيجة ذلك لم يحصل ، بل كان الامر على خلاف ما قد اُمل ، ذلك ان الب ارسلان صعد بجيشه الى قلعة الموصل على اثر نصيحة اسداها اليه الشهرزورى<sup>١</sup> ، على انه لم يلبث الملك ان وصل القلعة حتى احاط به من بها من اتباع زنكي وسجنوه ، وقتلوا من تأمر على حياة نصير الدين جقر ، نائب الشهيد على الموصل ، ثم ارسلوا عيونهم الى عماد الدين يعلمونه الخبر ، فسكن روعه ، فحين شرف الدين ابن اخت نصير الدين المقتول ، واليا على الموصل ، خلفا لخاله وارسله اليها ولكنه لم يعظه امرا خطيا في ذلك حتى اذا وصل شرف الدين هذا ابواب القلعة ، منعه نقيبها المدعو (حسن)<sup>٢</sup> من دخولها ما لم يكن مرفوقا بمنشور عماد الدين وعلامة تسليمه . ثم ترددت الرسل بينهما ، وانتهى الامر بان اذن له بالدخول ، ولكن بينما هو على اهبة دخول القلعة اذا بغبرة تترأى من بعد ، تتصاعد الى السماء ، فاقام الناس ينتظرونها ، فاذا هي تنكشف عن زين الدين علي كوجا<sup>٣</sup> ، اجادا لتكون النيابة له في القلعة عوضا عن شرف الدين لامر أرتاه عماد الدين بعد توليته شرف الدين امر الموصل . ولم تذكر المصادر الاخرى خبر هذا الاستئناف والاستدراك ، ولعلّه في نظرنا ان زين الدين كان في نظر اتابك اجدر بالولاية واحق بالنيابة من شرف الدين فآل اليه الامر من دون الاول .

### ٠٣٥ . زنكي وقلعة فنك ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م

تولى زين الدين على امر الموصل ، وأقرّ الأمور فيها ، واعاد الامن الى ندابه وسارت البلاد بعد ذلك في طريق السلام والاضمئنان ردحا من الزمن ، الى ان كانت سنة ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م<sup>٤</sup> ، اذ ارسل اتابك الى زين الدين يأمره بالرحيل الى حصن فنك المجاور لجزيرة ابن عمر<sup>٥</sup> ، والتابع للاكراد البشنوية<sup>٦</sup> وهو على ما يقوله صاحب ملوك الموصل " حصن من امنع الحصون ، مظل على دجلة ، وله

- 
- ٠١ ملوك الموصل ١٢٦ - ١٢٩ ٠٢ ملوك الموصل ١٢٧ ٠٣ ملوك الموصل ١٢٨  
 ٠٤ ابن الاثير ٤٤: ١١ ، ابرو الفداء ٣: ١٨ ، ابن الوردي ٢: ٤٦ ، ملوك الموصل ١٢٩ ، مقريوس ١٨٤ ، ستيفنسن ١٥١ ٠٥ ابن الاثير ٤٤: ١١ ، ابرو الفداء ٣: ١٨ ، ابن الوردي ٢: ٤٦  
 ٠٦ ابن الاثير ٤٤: ١١ ، ملوك الموصل ١٢٩ ، ابن الوردي ٢: ٤٦

سرب الى عين ماء<sup>١</sup> وكان الدافع الرئيسي الذى دفع زنكي لحصارها ما يذكره ابن الاثير من ان "زنكي كان لا يريد ان يكون في وسط بلاده ما هو ملك غيره حزما واحتياطاً<sup>٢</sup> نزل النائب زين الدين عند امر زنكي ، فجمع جيشا كثير العدد ، كامل الحدة ، من الفرسان والمشاة ، وسيّره نحو الحصن ، فحربوا عليه الحصار ، وضيقوا على اهلها ، ومنعوا عنهم الميرة وهم صابرون . واقاموا على حصاره مدة كادوا ان ينتصروا فيها على الحصن واهله ، لو لا ان اتتهم أخبار مقتل عماد الدين زنكي ، باعث القوة فيهم ، ففتت في ساعدهم ، وقرقت شملهم ، واضطرتهم الى رفع الحصار<sup>٣</sup> وهكذا زال خطرهم عن الحصن واهله ، و"انكشف ما بهم من الضر"<sup>٤</sup>.

٠٣٦ زنكي وقلعة جعبر ٥٤١ هـ = ١١٤٦ - ١١٤٧ م

كانت عساكر زين الدين علي لا تزال محاصرة قلعة الفك حين حضر لعماد الدين زنكي ان يوجه جيوده الى حصار قلعة حبر المحتلة على نهر الفرات<sup>٥</sup> ، فيقضي بذلك على مركز من اهم مراكز اعدائه ، والقائمة في بلاده ، ويخلص العالم الاسلامي من خطره ، هذا الدافع الذى دعا لعمار قلعة فك ، يدفعه منا ايضا لعمار قلعة جعبر<sup>٦</sup> . وقلعة جعبر هذه كانت بيد سالم بن مالك العقيلي سلمها السلطان ملكشاه الى ابيه لما اخذ منه حلب ، فلم تزل بيده ويده اولاده الى هذه السنة<sup>٧</sup> . وكان يطلق على هذه القلعة اسم "الدوسرية"<sup>٨</sup> ويقول ابن الغزى في محرر كلامه عن القلعة التي نحن بصدد ها "واسمها الدوسرية ، وجعبر هو سابق الدين القشيري الخيري ، شين اعمى طال مكثه في هذه القلعة فنسبت اليه"<sup>٩</sup>.

- 
- ٠١ ملوك الموصل ١٢٩ ٠٢ ابن الاثير ٤٤: ١١ ٠٣ ابن الاثير ٤٤: ١١  
 ٠٤ ملوك الموصل ١٣٠ ٠٥ ابن الاثير ٤٤: ١١ ، ابن الغزى ١ : ٤٨٥ ، ستيفنسن ١٥١ ، ويقول ياقوت " قلعة جعبر على الفرات بين بالس والرقه قوب صفين " .  
 باقوق ١٨: ٣ ٠٦ ملوك الموصل ١٣٠ ٠٧ ابن الاثير ٤٤: ١١ ،  
 ملوك الموصل ١٣٠ ، ابو الفداء ١٨: ٣ ، ابن الغزى ١ : ٤٨٥ ، ابن الوردي ٢ : ٤٦  
 ٠٨ ابن القلانسي ٢٨٤ ٠٩ ابن الغزى ١ : ٤٨٥

لقد كان ذلك في غضون سنة ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م<sup>١</sup> حين سار عماد الدين زنكي على رأس جيوشه الجرارة لمحاصرة هذه القلعة . ولقي زنكي الحصار عليها بنفسه هو، واخذ ينازلها، ويقاتل من بها<sup>٢</sup>، ردحا من الزمن، على ان قوة زنكي لم تفعل شيئا امام هذا الحدين الحيين، وجد أن الغشل لازم هجماته الاولى، فجنح في فتحها الى سياسة أخرى . عمد الى المراسلة والترهيب لعل ذلك يفتح له الحصن صلحا . والتفت حوله يفتش عن رجل يقيم له بهذه المهمة فلم يجد اجدر واحسن من الامير حسان المنبجي للقيام بهذا الامر، وكان بين حسان هذا وبين صاحب قلعة جعبر مودة وصداقة، فأراد ان يستغل زنكي هذه الصداقة، فارسل الى حسان يأمره بالمسير الى صديقه صاحب حصن جعبر ويطلب اليه باسم زنكي التسليم لقاء اقطاع وافر وعطاء كثير، فان أجاب لذلك امن ماله وحياته، وألا حمل عليه زنكي حملة لا يجد لنفسه منها مخرجا، وملك القلعة عنوة واتى على اهلها بما يريد ويرغب .

سار حسان المنبجي بهذه الرسالة الى صديقه صاحب الحصن، وظل وايام مدة يقنعه بوجوب التسليم، ولكن تهديد زنكي لم يزد صاحب الحصن الا اصرارا على القتال، وامتناعا عن التسليم . فعاد حسان خائبا، واخبر الشهيد بما قد حدث له .<sup>٣</sup> فلم يجد زنكي بعد ذلك بدا من المباشرة على حصار القلعة ومحاولة فتحها عنوة . فشدد عليها الخناق، وكاد ينتهي به الامر الى اخضاعها لولا ان عاجلته منيته، فقضي وهو في الحصار، بين دوى المجانيق، وضرب الرياح والظعن بها، وصليل السيوف، ففرق جيشه، وتفككت عراه، بعد ان قتل رئيسه وقائده وحاميه . فعاد الجيش خائبا، كما انسحب الجيش الذي كان محاصرا لقلعة فنك<sup>٤</sup>

- 
- ١ . ابن الاثير ١١ : ٤٤ ، ملوك الموصل ١٣٠ ، ابن الغزى ١ : ٤٨٦ ، ابوالفداء ٣ : ١٨  
ابن الوردي ٢ : ٤٦ ، ابن القلانسي ٢٨٤ ، ستيفنسن ١٥١ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥
  - ٢ . ابن القلانسي ٢٨٤ ، ملوك الموصل ١٣٠ ، ابن الاثير ١١ : ٤٤ ، ابوالفداء ٣ : ١٨  
ابن الوردي ٢ : ٤٦
  - ٣ . ابن الاثير ١١ : ٤٤ ، ملوك الموصل ١٣٠ ، ابوالفداء ٣ : ١٨ ، ابن الوردي ٢ : ٤٤  
ابن الغزى ١ : ٤٨٦ ، ابن الاثير ١١ : ٤٤ ، ملوك الموصل ١٣١ ، ابن خلكان ٢٧٢ : ١ ، القرطبي ٢٧٩ ، ابن الوردي ١ : ٤٦ ، ابوالفداء ٣ : ١٨ ، ابن الغزى ١ : ٤٨٦
  - ابن القلانسي ٢٨٤ ، ستيفنسن ١٥٢

### ٣٧ . مقتل عباد الدين زنكي ٥٤١ هـ = ١١٤٢ م

كان ذلك في ربيع الآخر من سنة ٥٤١ هـ . ليعبر ليال خلين من هذا الشهر قد لا تتجاوز الخمسة على قول اكثر المصادر العربية والفرنجية التي عنيت بهذا الموضوع<sup>١</sup> . ويكاد ابن خلكان يتفرد في رواية يزعم فيها ان مقتل الشهيد كان لخمسة عشر يوما خلت من ربيع الآخر ، بينما هو يتفرد بتفاصيل الرواية مع بقية المصادر . ولا اعتقد انه من الصعب ان ابت في امر كذا ، فأميل عن رواية ابن خلكان وارجح الروايات الاخرى ، لا سيما وان ابن الاثير اقرب المؤرخين الى الحادثة يعين لنا التاريخ في ٥ ربيع الآخر سنة ٥٤١ هـ واذا زدنا الى ذلك ان ابن الاثير اخذ روايته عن ابيه وان ابيه كان شاهدا عيانا حضر بنفسه مقتل الشهيد ، رجحت ولا شك كفة روايته على رواية ابن خلكان . واذا ما اردنا تفسير هذا الاختلاف البسيط ، فحسبنا من ذلك الظن بأن ابن خلكان عند ما نقل الرواية عن ابن الاثير او سواه ، كان اخذه خاطئا ، فاخذ في النقل خمسة عشر يوما عوضا عن خمسة ايام ، وقد يحدث مثل هذا الخطأ كثيرا .

كان زنكي في حصار قلعة جعبر<sup>٢</sup> يقاتل اعراف النهار ويذهب الى نراشه . آناه الليل . فبينما هو في الليلة العاشرة من شهر ربيع الآخر ٥٤١ هـ = ٢٤ سبتمبر ١١٤١ م استغرق في سبات عميق ، اذ دخل عليه نفر من مماليكه وانقضوا عليه وقتلوه غيلة دون ان يجهزوا عليه وهربوا من ليلهم الى القلعة وابروا اهلها بمقتل الشهيد . ولم يلبثوا حتى انتشر الخبر الاليم بين جندر الشهيد نفسه ، فأخذ اصحابه رعشة وكادوا لا يصدقون ما سمعوا واسرعوا اليه يتحققون من الخبر ودخلوا خيمته ، فاذا هو يعالج النزاع الاخير . وكان بين من دخل عليه بعض خواص والد ابن الاثير ، فادركوه وبه رمق ، وحاولوا سؤاله عن الامر ، فلم يطق المقتول كلاما ، وامتنع عن الجواب حتى فاضت روحه .

- 
- ١ . ابن الاثير ١١ : ٤٤ ، ملوك الموصل ١٣١ ، المقرئى ١ : ٣٨ ، الروضتين ٤٢ ، ابو القداء ٣ : ١٨ ، ابن الوردي ٢ : ٤٦ ، ابن القلانسي ٢٨٤ ، الحريري ٥٩ ، الموسوعة ٤ : ٢٢٥ .
- ٢ . ابن الاثير ١١ : ٤٥ ، ملوك الموصل ١٣١ ، الروضتين ٤٢ ، القرماني ٢٧٩ ، ابو القداء ٣ : ١٨ ، ابن الوردي ٢ : ٤٦ ، ابن القلانسي ٢٨٤ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥ ، سليفنسن ١٥٢ .

يقصر هؤلاء، حين عودتهم خبر مقتل هذا الشهيد الى والد ابن الاثير، وابن الاثير هذا كان يتعاضى التاريخ فيثبت لنا الرواية بين صفحات كتابيه ملوك الموصل والكامل في التاريخ كما سمعها عن والده . ولا بأس من ايراد هذا الخبر بنصه كما كتبه ابن الاثير . يقول ابن الاثير في معرض بحثه عن مقتل الشهيد ان والدى قد روى لي هذه الرواية بناءً على رواية احد خواصه ان كان شاهد عيان فقال - ادركته وهو في السياق، فحين رأيته ظن اني اريد قتله فأشار الي باصبه السبابة، فوقفت من هيبتة وقتلت له : يا مولانا من فعل بك هذا حتى اقتله؟ فلم يقدر عن الكلام وختم الله بالشهادة اعماله، وفاضت منه نفسه، وسكن رمله، واصبح معدوماً كأن لم تغن بالامر، وزال عنه الملك ولم يغن عنه اصحابه وعساكره . فقال فيه بعض الشعراء :

فأعجب لمن قاد الجيوش ونفسه	قسمان بين الكر والاقدام
يلقي الكئاب مفردا بكتائب	من نفسه واليوم يكدر حامي
لا يرعوى عن ان يقارع وحده	الفا ببيض حارم صمصام
يأتي الفتوح على الفتوح بسيفه	وبرأيه وبغزوه المقدام
حتى اذا الاجل انقضى مستكملا	ما خط في الالواح بالاقلام
لاقي الحمام ولم يكن مستيقنسا	ان الحمام سيبتلي بحمام

وهاج الخند وماج، تتقطع نفسه على فقد قائده، وراح الناس يضربون اخماسا باسداس يقدرون من القاتل . فقد قتله المتآمرون وفروا ولم يرهم احد<sup>١</sup> الا ان القاتل من غلمانه وماليكه ولا شك، ان لا يجسر على الدخول عليه ليلا في مثل هذه الساعة الا خواصه من غلمانه<sup>٢</sup> فمن يكون هذا المملوك الذي اقدم على قتله؟ تسكت كل المصادر عنه، لا لتستر عليه فضيخته بل لجهلها به وباسمه وشخصه . على ان ابن القلانسي وصاحب الروضتين لم يتورعا عن ذكر اسم القاتل فهو في زعمهم رجل افرنجي الاصل يعرف (برتقش) قتله لحقده عليه<sup>٣</sup> ويزيد صاحب الروضتين على ذلك "ذبحه برتقش وخرج ومعه خاتمه"<sup>٤</sup>.

١. ابن الاثير ١١: ٤٥، ملوك الموصل ١٣١، ابن الوردي ٢: ٤٦، ابوالفداء ٣: ١٨  
كرد علي ٢: ١٦، الحريري ٥٩

٢. ابن القلانسي ٢٨٤ ٣. الروضتين ٤٢

وكما ان الروايات تختلف بعض الاختلاف في امر تعيين القاتل ، كذلك تختلف بعض الاختلاف في امر دفن الرجل وموضع دفنه . يدعي اكثر المؤرخين ان الشهيد بعد ان قتل احتمله اصحابه الى الرقة ودفنوه فيها بعد ان اقاموا له مراسيم الجنازة والدفن <sup>١٠</sup> على ان ابن الاثير في كتابه ملوك الموصل <sup>٢</sup> وابن خلكان <sup>٣</sup> ، وابن القلانسي <sup>٤</sup> ، يزعمون ان الشهيد حينما اغتاله معاليكه ، احتمله اصحابه الى صفين ، على ضفاف الفرات ، ودفنوه فيها . يقول ابن الاثير " ولما قتل دفن في صفين عند اصحاب امير المؤمنين علي عليه السلام ، ولقد بلغني انه اجتاز بها وزار مشاهدها ، ثم قال — وددت اني شهدت صفين بعسكري مع امير المؤمنين — حتى كنت اريه القتال الذي تعجز اصحابه عنه ، ولكل امرئ ما نوى . "

على ان من يتدبر في الامر قليلا ، ويتابع الحوادث ، يجد ان هذه القامة التي تحيط بامر دفن الشهيد ، لا تلب ان تنقش ويظهر صدق الفريقين من المؤرخين . ذلك ان عماد الدين زنكي دفن في صفين وفي الرقة . دفن في صفين اولاً ، ثم عندما استتب الامر لابنه نور الدين زنكي احتمله الى اسرة حيث اقام له مقاما خاصا ، ونقل اليه رقاته <sup>٥</sup> ، وهكذا نضم البحث بان الشهيد دفن اولاً في صفين ثم نقل الى الرقة حيث مقره الاخير .

### ٠٣٨ . سيرة عماد الدين زنكي

لقد القينا فيما سلف نظرة عامة على اعمال عماد الدين زنكي الحربية واستوفينا بعض الاستيفاء معظم الاحداث التي تحيط بحياته . لا نقول اننا استوفينا كل ما يجب ان يقال فيه من ناحية اعماله الحربية ، واننا وفيناه حقه من البحث ، بل اني اظن ان هناك كثيرا من الاخبار ، وكثيرا من الاحداث التي لم تأت المصادر على ذكرها ، اما لانها لم تستلفت نظر المؤرخين ، او لانها تقع منهم موقع الجهل . وما دامت المصادر التاريخية مقصورة في تاريخ سيرته من هذا القبيل ، فلا ينتظر منا

٠١ القرطبي ٢٧٩ ، ابن الخزي ١ : ٤٨٦ ، ابوالفداء ٣ : ١٨ ، الحريري ٥٩ ، ابن الوردي ٢ : ٤٦

٠٢ ملوك الموصل ١٣١-١٣٦ ٠٣ ص ١ : ٢٧٢ ٠٤ ص ٢٨٥

٠٥ ملوك الموصل ١٣٦ ٠٦ ابن القلانسي ٢٨٥ ، ملوك الموصل ١٣٦

ان نزيد على ما جاء في مصادرهم شيئا ، لان معيننا الذي نستقى منه الاخبار  
انما هو معينهم . لذا نقول بكل صراحة ان البحث ناقص ، وبعيد عن ان يكون  
كاملا كالأبحاث التاريخية المطلوبة .

على اننا ان نحن اعترفنا بذلك فليس القصور قدورنا ، وليس النقاب  
نقصنا ، وانما هو قدور المصادر ، وانما هو نقص المؤرخين ، لان ابحاثهم من هذا  
القبيل لم تكن بالغة حد الكمال . ويمكننا ان نعلن بكل ارتياح اننا لم نترك مصدرا  
من المصادر المعروفة الا واتيينا على قراءته ، واستشقيينا من خلاله ما له علاقة  
بموضوعنا بحيث لم نعمل منها شيئا ، حرصا منا على الاحاطة بكل ما كتب عنه في  
اللغة العربية ، وباتثر ما كتب عنه في الانكليزية . وانه حقا لما يطلع الدور ان  
المؤرخين لم يهتموا بتاريخ اعمال الشهيد عماد الدين زنكي الحربية فحسب ، كما  
عهدناه عند اكثر المؤرخين العرب ، انما هم تعدوا ذلك الى ذكر شيء عن سيرته  
واخباره الخاصة . بل هم في بعض الاحيان اتوا على ذكر اوداعه الخارجية ، من سول  
وقامة ووجه . ولا تترك بأسا ونحن نؤثر عماد الدين من ان نشيت هنا ما جاء في  
المصادر عن سيرته الخاصة ليتم بذلك بحثنا .

#### ١ - خلقه (اوصافه الجسدية)

اما فيما يتعلق بصفاته الشكلية الخارجية فيشهد ابن الاثير انه  
"كان حسن الصورة ، اسمر اللون ، مليح العينين ، قدح خطه الشيب ، طويلا وليس  
بالطويل البائن ، تام القامة" <sup>١</sup> . ولا حاجة الى الترييد بما لرواية ابن الاثير من  
القيمة والافضية لانه يمكن اعتبار روايته اصلا موثوقا باعتبار ان اغلب اخباره استقاها  
من ابيه ، وابن الاثير كان صديقا لعماد الدين ، مرافقا له في كثير من اسفاره  
ورحلاته ، ملازما له في اكثر الاوقات . ولقد اجمعت جميع الابحاث على هذه  
الصفات ، بل هي قد نقلتها عن ابن الاثير بالحرف . حتى انك اذا تدفقت جميع  
المصادر وجدتها تردد امثال هذه الكلمات "كان حسن الصورة ، اسمر اللون ،  
مليح العينين ، قدح خطه الشيب" <sup>٢</sup> .

١ . ملوك الموصل ١٣٦ ، والكامل لابن الاثير ١١ : ٤٥

٢ . ابو الفداء ٣ : ١٨ ، ابن الوردي ٢ : ٤٦ ، الحنبلي ٤ : ١٢٨ ، الحريري ٥٩



وهكذا اذا ذكرنا عماد الدين زنكي تصورنا رجلا اسمر اللون  
قد طبعت السنون على وجهه طابع النسيخوخة ، حتى اذا جاوزها قليلا سطت يد  
المنون عليه فأفقدته الحياة ، واسكنته مرقده الاخير . ولا نعرف بالضبط كم سنة عاشر  
زنكي بعد الستين لان المصادر لا تذكر ذلك بالتحديد واليقين ، وانما هي  
تقول انه مات بعد ان جاوز الستين من عمره <sup>١٠</sup>.

### ب - اولاده

خلف زنكي من الاولاد خمسة ما بين ذكور واثاث ، منهم اربعة ذكور  
وبنت واحدة ، لا تأتي المصادر على ذكر اسمها . اما البنون الاربعة فيهم ( سيف  
الدين غازي ) وهو الذي ولي حكم الموصل بعد ابيه القتيل الشهيد ، و ( نور الدين  
محمود ) الذي تلقبه المصادر بالملك العادل والذي تولى امر حلب ، و ( قطب الدين  
مودود ابو الملوك ) و ( نصره الدين امير اميران ) <sup>٢٠</sup>.

### ج - سياسته

لا يمكننا ان نحكم حكما جازما قاطعا على سياسة عماد الدين زنكي  
ونزعته ، اذ ان السياسة من خصائصها ان تتلون وتتحول بتحول الظروف . ولا يمكن  
لسياسي ان يستقر على حال واحدة او يتميز بنزعة معينة ، اذ ان ذلك يتنافى  
مع مفهوم السياسة اليوم .

على اننا نعترف مبدئيا بأن زنكي كان رجل سياسة وحكمة ودهاء .  
كان لا يتأخر عن استعمال الحيلة اذا وجد لها داعيا ، وكان لا يمتنع عن استخدام  
الخدعة والمكر حين كانت تضطره الظروف . وقد رأينا صدى هذه السياسة ، وهذه  
الحنكة عندما تكلمنا عن علاقة زنكي بالخليفة انه كان يخدع الخليفة ومكره . واخبار  
ذلك كثيرة قد اتينا على ذكرها في وقتها ، لذا فلا حاجة الى ترديد ها الان .  
وقد لاحظ المؤرخ دوكلاس هذه الناحية من سياسة عماد الدين زنكي فشهد له بالمهارة  
وبالمكر والخداع ، فقال " لقد كان عماد الدين زنكي ماهرا ، وخداعا ، وقاسيا " <sup>٣٠</sup>.

١٠ ابن الاثير ١١ : ٤٥ ، النرمانى ٢٧٩ ، ابو الفداء ٣ : ١٨ ، الحنبلي ٤ : ١٢٨ ،

ابن الوردي ٢ : ٤٦ ، ستيفنسن ١٥٢ ، الحريرى ٥٩

٢٠ ملوك الموصل ١٣٦ ٣٠ دوكلاس ١١٨

والمؤرخون اجمع يقرون له بذلك ، فيجمعون على انه كان داهية ، عظيم السياسة<sup>١</sup> .

ويظهر انه كانت لعماد الدين هيبة كبيرة في نفوس اتباعه ، وثان قوى

الشكينة شديد المراس ، شجاع القلب ، ذا سلطان كبير على رعيته ، يتتبع بحسبهم واجلالهم واحترامهم الممزوج بالخشوع والرهبة<sup>٢</sup> . يقول فيه كرد علي " وكانت صفاته صفات سريية راتية ، اشتهر بشجاعته ونجدته ، اشتهاره ببجسته وشدته<sup>٣</sup> " . وفي الحق ان عماد الدين كان مثالا في الشجاعة<sup>٤</sup> به كان يضرب المثل<sup>٥</sup> . ولا اعتقد ان احدا يشك بمواهب بطلنا من هذا القبيل ، ومن عرف حاله واحادة الاعداء به ، والعامعين ببلاده والمنازعين له السلطان من كل ارب و صوب ، ثم علم الى جانب ذلك صبر زنكي ورباطة جأشه والقضاء على جميع اعدائه والاستيلاء على اكثر بلادهم ، حكم لزنكي بالبطولة والشهامة<sup>٦</sup> . ويذكر ابن الاثير عن والده في هذا المعنى ما نعه " كان الشهيد قدس الله روحه قد احدث الاعداء بولايته ، والمنازعون له ، فمنهم امير المؤمنين المسترشد بالله الذي سار الى الموصل وحضرها ، ومنهم السلطان مسعود في اعمال الجبال واذريجان ، قد جاور اعمال الشهيد بتلك النواحي ، وهو اقوى الخلق ، واكثرهم عساکر ، واكثرهم كرامة للشهيد ، ثم الى جانبه اعمال ارمنية ، وهي بيت سكران ، ولهم العساکر الكثيرة ، والبلاد الواسعة ، وهم اعداؤه ، وقد جاورهم في حيزان والمعدن ، ثم الى جانب بيت سكران ركن الدولة داود بن سكران ابن ارتق صاحب حصن كيفا ، وديار بكر وابن عمه حسام الدين تترتار ابن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين ، وقد جاوروا كثيرا من ولايته منها جزيرة ابن عمر ونصيبين ، ومع هذا فاخذ من بلادهما كثيرا ، ثم الى جانبهما الفرنج من قريب ماردين الى باب دمشق قد جاوروا بلاده من رأس عين ، وحران ، وحلب ، وحماة ، وحمص ، وعلبك ، وهم اشد ما كانوا قوة واكثر جمعا ، ومع هذا فهو يملك بلادهم ، ويأمرهم مرة بعد اخرى ثم صاحب دمشق قد جاوره بها ، ومع هذا فهو يأخذ ايضا من بلاده ، فكان يستقر بل يغزو كلا منهم في عقر داره ما عدا السلطان مسعود فانه كان لا يباشر قصده

١ ابن الاثير ٤: ١١ ، القرمانى ٢٧٩ ، الحريرى ٥٩

٢ ابن الاثير ٤: ١١ ، القرمانى ٢٧٩ ، ابوالفداء ٣: ١٨ ، الحنبلي ٤: ١٢٨ ،

الحريرى ٥٩ ٣ كرد علي ١٦: ٢ ٤ ملوك الموصل ١٥١

٥ ملوك الموصل ١٥٠ - ١٥١

بل كان يحمل اصحاب الاصراف على الخروج عليه ، فاذا فعلوا عاد السلطان مسعود اليه وطلب منه ان يجمعهم على طاعته فيصير كالحاكم على الجميع ، فانظر الى هذه الشجاعة وهذا الرأي والتدبير ، ولو لم يكن في زمانه غير ركن الدولة داود صاحب الحسن لتقى به فانه كان بعيد الصوت في التركمان ، يجمع منهم كل من حمل السلاح وكان مع هذا شجاعا مقداما ، يفارق المعركة مهزوما ثم يعاود الحرب بعد ايام ، واما الفرنج فقد كانوا لما ملك البلاد قد قهروا المسلمين ، وملكوا بلادهم ، واكثروا فيهم القتل ، ولهم فيهم الصوت العظيم ، والهيبة الكثيرة<sup>١٠٠</sup>

وكان يجمع الى هذه الشدة والشجاعة دماثة في الخلق ، ورحابة في الصدر ، لا حد لهما ، ولعل لين عريكته ودماثة خلقه هذه هي التي حببته الى السلطان تاج الملوك وقربته منه منذ نعومة اظفاره ، حتى ان المصادر تذكر ان السلطان تاج الملوك عندما تعرف الى عماد الدين تقدمه على ابناء جنسه من خواص وبطانته ، فجعله مقدم عسكره ، واستنابه في تدبير امر بعض بلادهم ، وسلم اليه ولده شمس الملوك ، واعتمد عليه في تربيته وكفالاته<sup>١٠٠</sup>

ويقول ستيفنسن في معرض كلامه عن الشهيد عماد الدين زنكي " قد دلت اعماله بانه شخص يعلم كيف يستخدم القوة التي بيده ، فقد كان رجلا واضح الغاية ، سريع التنفيذ لخطته ، قاسيا مع الاعداء ، رحيما للاصحاب والرايا . وكانت النار تنافه ، وقد تبني مصالحهم وكان ينشر الامن والسلام في البلاد<sup>١٠٠</sup> ولعل ستيفنسن محق فيما يذهب اليه من تقريره زنكي ان المصادر العربية كلها ، وابن الاثير في زمرتها ، تصف هذه الناحية من اعمال زنكي فتكيل له المدح والتناء لما كان يبذله من الجهد والعناية في سبيل تسيير الامور ، وتسهيل المصالح ، واقرار الامن والسلام في البلاد التي كان يفتحها . اصف الى ذلك ان زنكي كان شديد العناية بالضعفاء ، يضرب على ايدي القوى ويأخذ بناصر الضعيف ، يراعي اصحاب الحق في حقوقهم ولا يخاف في ذلك لومة لائم . يقول صاحب ملوك الموصل " كانت سيرته من احسن السير ، واكثرها حزمًا و ضبطًا للامور . كانت رعيته في امن شامل ، يعجز القوى على التعدي على الضعيف . لم يتغير على احد من اصحابه منذ ملك الى ان قتل الا بذنب يوجب التغيير<sup>١٠٠</sup> .

ويورد ابن الاثير كثيرا من القصر التي تدل على نزاهة الرجل وعدله وانصافه ، لعل من ابلغ هذه القصر تلك التي تقرر باسم الامير عز الدين ابي بكر الديبسي ، ومؤداها " أنه لما قدم الشهيد جزيرة ابن عمر ، وكان الزمان شتاء فنزل بالقلعة ، ونزل العسكر في الخيام ، وكان في جملة امرائه ، الامير عز الدين ابو بكر الديبسي ، وهو من اكابر امرائه ومن ذوى الراى عنده ، فدخل الديبسي البلد ونزل بدار انسان يهودى واخرجه منها . واستغاث اليهودى الى الشهيد وهو راكب فسال عن حاله ، فأخبره به وكان الشهيد واقفا والديبسي الى جانبه وليس فوقه احد ، فلما سمع اتيك الخبر نظر الى الديبسي نظر معضب ولم يكلمه كلمة واحدة ، فتأخر القهقري ودخل البلد واخرج خيامه وامر نصبها ، ولم تكن الارض تحتل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطين ، قال فلقد رأيت القراشيين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته ، فلما رؤا كثرت جعلوا على الارض تينا يقيمونها ونصبوا الخيام ، وخرج اليها من ساعته ، وناهيك بهذا سياسة وانصافا .<sup>١٠</sup>

#### د - زنكي والدين

ويظهر ان عماد الدين كان ينزع نزعة اسلامية ، ويرى ان التمسك بالدين امر لا محيص منه ، فأقبل على تعليمه ، واستمسك به راسا ، وعمل بحسبها . ومن يلق نظرة على المصادر العربية يستطيع ان يستشف من خلال سطورها هذا الاتجاه في الحكم على زنكي من حيث حياته الروحية . وربما كان ذلك سياسة منه لا اخلاصا وتقوى .

وما يؤثر عنه في هذا الباب انه كان شديد الغيرة على نساء الاجناد كثير الحرص على حفظهن ، لان كثرة غياب بعولهن عنهن يسبب فسادهن ، لذلك ألزم نفسه محافظتهن محافظة حقة .<sup>٢٠</sup>

#### هـ - زنكي وعماره البلاد

لعل من اهم ما يقرر باسم عماد الدين زنكي من الاعمال الخاصة

١٠ ملوك الموصل ١٣٦ - ١٥١

٢٠ ابن الاثير ٤٥ : ١١ ، الروضتين ٤٤ ، كرد علي ١٧ : ٢

عنايته الملحة، واهتمامه الشديد في امر تعمير البلاد بعد خرابها، ورفعها بعد دمارها . يقول ابن الاثير في كتابه ملوك الموصل " لا خلاف في ان عمارة البلاد من ثمرات العدل وكف الايدى المتطاوله الى اهلها، ومن علم حال هذه البلاد قبل ملكه، عرف مقدار ما عمر منها، حكى لي والدي قال رأيت الموصل التي هي ام البلاد في اول ايام الشهيد واكثرها خراب، وكان الخراب من محلة الطباينة الى القلعة والى دور السلطنة، وكانت العروة ترى من قريب مسجد التركماني وهو قريب من الطباين، وكان الجامع الكبير بلا عمارة، وكانت جميع المحال غير معمورة، فلما طالت الايام الشهيديّة، وحسنى البلاد، ومنع المتسدين، وكف ايدى الاقوياء، سارت سيرته في البلاد، فلم تنزل العمارة تكثر بالموصل وغيرها حتى ذهب كثير من المقابر وبنيت دوراً<sup>١٠</sup> ويقول منقرئوس بهذا المعنى " وكانت الموصل قبل ان يملكها خراباً، فصارت في ايامه وما بعدها اكثر البلاد نواكه ورياحين<sup>٢٠</sup> .

#### و- عماد الدين والادارة

لقد كان عماد الدين ذا خبرة ادارية كبيرة، كما كان ذا حنكة سياسية عظيمة . كان يعرف كيف يدير البلاد، كما كان يعرف كيف يسوسها . بلغت فيه الدقة في الاميرالادارية الى حد انه كان يعلم كل ما يجري حوله من الاعمال وليس من شاردة او كبيرة الا وكان زندي يعلمها . فقد كانت عيونه منبثة في كل الاطراف، تأتبه في كل وقت حاملة اليه من اخبار الامصار الشئ الكثير . ولقد ذكر ابن الاثير عن والده في هذا الصدد قصة لا بأس من ذكرها . هي قصة زيارته محسكر زندي حين كان في حصار قلعة جعبر، يقول :

" انني وصلت الى عسكريه بقلعة جعبر قبل قتله بايام وقصدت خيام جمال الدين الوزير، فحين وصلت ادخلني اليه، فبينما انا عنده وهو يسألني عن طريق اذا وقد جاءه مملوك تركي من عند الشهيد وقال له بالعجمية كلاماً لا اعلمه، فقال لي جمال الدين متى وصلت؟، فقلت الساعة، فقال هذا اعجب، تجيء الساعة، ويسمع أتابك بوصولك، ولا شك قد علم بك قبل وصولك الي، وقد ارسل

١٠ ملوك الموصل ١٣٦ - ١٥١

٢٠ منقرئوس ١٨٥